قُشَعريرة

الوطن
للنشر والتوزيع

اسم الكاتب	علي وفل
رقم الإيداع	2019 /23423
الترقيم الدولي	977-977 -85600-2-2
تصميم الغلاف	كريم آدم
التدقيق اللغوي	مختار مراد
الإخراج الفني	ضياء فريد
المدير العام	خالد ناصف

0100 018 8557

alwatanpublishinghouse@gmail.com

FB.com/alwatanpub

35 شارع أحمد ذكي المعادي -القاهرة

قشعريرة

ج1

قصص رعب من واقع ملفات طبيب نفسي

مجموعة قصصية

علي نوفل

«هل تنتابك القشعريرة؟ تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث؟ هل تنتابك في عتمة الليل المرتعشة نجومه؟ أم في ذلك النهار المضطربة شمسه؟ هل ترتاب من جارك غريب الأطوار الذي يسكن أمامك مؤخرًا؟ هل يثير ذلك المذياع القديم في غرفتك الرجفة في صدرك؟ هل تشعر أن المرآة في غرفة نومك تراقبك؟ هل تخشى تلك الشجرة القديمة في طريقك؟ هل فكرت يومًا أنك قد تدفع ثمنًا لما قد اقترفتَه؟ إذا لم تفعل فأنصحك أن تفكر، فتلك القشعريرة الغريبة، تلك القشعريرة الرهيبة، آتية، ولن يمنعها أبدًا خوفك».

«أبشعُ الوحوشِ هي تلك التي تَتوارى بداخلنا»

إدجر آلان بو

إهداء

إلى تلك التي خطَّ القلم حروفه بعبيرها

وامتلأ القلب جمالًا بسحرها

تلك التي حرّرتني

فامتلكتني

إلى الشريكة

والرفيقة

إلى الفراشة الرقيقة

إلى زوجتي

شيماء

كل الشكر، وكل الامتنان

مقدمة

الخميس: الثالث عشر من يونيو لهذا العام.

إنه يطاردني

ذاك ما كنت أخشاه، ولم أحسب يومًا أنه سيحدث أبدًا، أنا خائف جدًّا، بل مُرتعب، فذلك الشيء لا توقفه الحواجز، ولا الأقفال، لا يَهابُ الحرَّاس، ولا يخاف الأسلحة، إنه قادم لا محالة، لذا سأكتب، نعم سأكتب، سأخبر الجميع: لِمَا يُصرُّ على مطاردتي بتلك الشراسة، لِما جعل إنهاء حياتي هدفًا وحيدًا لحياته، الحكاية بدأت بمرضاي، حين أعطت كل حكاية منهم جزءًا وحلًّا لِلُغزٍ مخيف، لغز كان السبب فيما أصبحت عليه، فأنا طبيب نفسي أستقبل المرضي بعيادتي المتواضعة، على

مدار عشر سنوات قابلت الكثير من المرضي، وسمعت الكثير من الحكايات، ولكن مَن سأحكي لك عنهم اليوم مختلفون، جاءت حكايتهم بنيران المعرفة، فاحترقوا بها، كل ما ستراه اليوم هو ملخص ما سمعته منهم وما سجلته لهم، كل هذه الحكايات هي ما وصلت بي أن أواجهه وسأواجهه، لن أختبيء في تلك المصحة مرة أخرى، وستكون مواجهتنا قاتلة!

د.أكرم وأصف

من غرفة رقم 112
بمصحة الأمل للأمراض النفسية والعصبية.



الرسام

«الرسمُ وَهْمٌ، إنه قطعةٌ من السحر،
لذلك ما تراه هو ليس ما تراه»

فيليب جوستن

هل تؤمن بالمصادفات؟ كم مرة حدثت في حياتك مصادفة ثم اكتشفت أنها ليست كذلك، كم مرة انتبهت لحوادث حدثت سابقًا كنت تظنها منفردة، ثم اكتشفت اتصالها كحكاية مخيفة؟

أنا مصوّر شاب، أعمل لجريدة مشهورة في قسم الحوادث، كنت أسكن في عمارة قديمة في وسط القاهرة، شاب مليء بالطاقة والطموح، حياة عادية لشاب يعيش بمفرده، أخوض بعض المغامرات المتفرقة التي تُكسب حياتي بعضًا من النشوة والحيوية، كانت حياتي كالجالس على شاطيء بحر هاديء، يُراقب الموجة الهادئة تلوَ الموجة، يستمتع بها، ولا يفكر أبدًا فيما قد يحمله ذلك البحر إليه يومًا، بدأت الحكاية في اليوم الذي تعرفت فيه على ذلك الشاب الذي يسكن مقابل شقتي،

كان ذلك الجار شابًا غريب الأطوار، في الواحدة والثلاثين من عمره، ضئيل الجسم، صاحب كَفّين دقيقتين دقّة بالغة حتى لَتشعر أنها من فرط دِقتها كأنها مرسومة للتوِّ بيد فنان ماهر، كانت يداه عجيبتين، تختلفان عن بقية جسده، تشعر أنهما مضيئتان بضوء خافت خفيٍّ يسلب اللبَّ ويبعث في القلب قشعريرة عجيبة، تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث، القشعريرة التي تشعر معها أن أنفاسك تأبى أن تدخل رِئتك، وأن روحك تقاتل للهروب من جسدك، كانت ملامح وجهه دقيقة وحادة من عينين عميقتين ناعستين، تشعر معهما أنه استيقظ للتوِّ من نومه، أو أنه لا زال نائمًا، الغريب أن شعره كان رماديًّا، تشعر أن لونه أبيض ولكنه متّسخ لكنه لم يكن كذلك، كان ثمة شيءٌ غريب حول جاري الغريب الأطوار، ذلك الشيء الذي يدفعك للهروب ولكنه يدفعك أيضًا للاقتراب، كذلك البئر المخيف الذي ترغب في استكشافه، لكن تعرف أنك قد تسقط فيه، كنت لا أرى جاري إلا نادرًا، وعندما أراه كان دائمًا مُشعث الرأس، شارد النظرات، غير مهندم تمامًا، كأنه خرج للتوِّ من معركة هائلة، حدث مرة أو اثنتين أن رأيته وأنا خارج من المنزل، وكان يستعد للدخول لمنزله، ولما ألقيت عليه التحية ردها بصوت ضعيف مرتجف.

دفعني الفضول أن أزوره، أنهيت عملي وعُدّت في المساء وقررت أن أطرق بابه، طرقت الباب، فأجاب، ثم فتح الباب ببطء، دعأني للدخول فدخلت، كانت شقته مثله تمامًا، غير مرتبة، متّسخة، حتى إن معظمها كان مظلمًا، كانت تضيئه أنوار خافتة، من شدة ضعفها تعتقد أنها تنير ضوءًا أسود اللون، أو أنها تخشى شيئًا رهيبًا مختبئًا في تلك الشقة، كان رسامًا، اللوحات متناثرة في كل مكان، فرشات الرسم في كل ركن، الألوان تملأ الكراسي والأثاث، دعاني للدخول إلى غرفة مرسمه، كانت كئيبة إلى حد ما، تملؤها اللوحات، كانت لوحاته فائقة الجمال، شديدة الواقعية، لكنها كانت مرعبة لأي شخص، حتى لشخص مثلي يعمل في قسم الحوادث ويشهد مختلف الجرائم، كانت لوحاته كلها عن جرائم قتل، شنق، انتحار، كانت كأنها مصورة، تعابير الرعب على الوجوه، نظرات الشفقة في العيون، كانت اللوحات تنتزع قلبك وتذهب بأنفاسك، لكنها كانت شديدة الدقة والجمال للدرجة التي جعلتني أفكر أن أستعين به في رسم موضوعات الجريدة، طردت هذه الأفكار سريعًا من رأسي وأخذت أجاذبه أطراف الحديث، كان صوته ضعيفًا ولكنه كان مهذبًا، جذبنا الحديث للوحات التي يرسمها، أخبرته عن إحدى اللوحات التي جذبت نظري في إحدى أركان غرفته، أحضر اللوحة، كانت لشخص في مقتبل العمر غارقًا في دمائه ومطعون

بخنجر قبضته مليئة برسوم دقيقة وجميلة، أعجبت باللوحة وسألته من أين استلهمها، أخبرني أنها خيالية، قام برسمها منذ وقت طويل مضي، وأن الإلهام يأتيه في أي وقت، فيمسك فرشته ويرسم، أحيانًا لا يشعر أنه يرسم، بل الفرشاة من تلقاء نفسها، أعجبني تعبيره الأخير، كان يدل على مهارته وموهبته وأيضًا على تواضعه، كان حديثه ممتعًا، مرّ الوقت سريعًا، فقررت العودة إلى المنزل، شكرته على حسن ضيافته ووعدته بالحضور مرة أخرى، طلب مني الانتظار، ذهب خارج الغرفة ثم عاد بفرشاة رسم ولوحة فارغة وبعض الألوان، طلب مني أن أقبل تلك الهدية ولن أندم أبدًا، وأن تلك الهدية ستجعلني أحب الرسم وأتقنه في وقت قليل، ولما كنت أحب الفن فقد قررت أن أقبل الهدية، وشكرته منصرفًا عائدًا إلى المنزل، أخذت هديته وعدت للمنزل، وضعت اللوحة والألوان والفرشاة على منضدة في غرفة الجلوس حتى يتسني لي أن أتذكرها وأن أستخدمها في وقت فراغي.

في مساء اليوم التالي زارتني زميلتي، كانت فتاة رقيقة يربط الإعجاب بين قلبينا برباط قوي رقيق، كنت معتادًا أن تزورني، تتناول فنجان قهوة، نتحدث في شؤون الحياة وفي العمل، كنت أحب آراءها والطريقة التي تفكر بها وكنت قد قررت أن أصارحها بحبي وبرغبتي في الارتباط بها ولكنني كنت أنتظر

اللحظة المناسبة، دعوتها للدخول في غرفة الجلوس، كانت أضواء الغرفة باهتة، لم أكن أعرف السبب فباقي الغرف ذات أضواء قوية، ومصباح الغرفة كان حديثًا وقويًا، شعرت بضيقي فهتفت بابتسامة أنها غير متضايقة من إضاءة الغرفة وأن الغرفة تتامر لتصبح إضاءة رومانسية، أعجبني سرعة بديهتها وحلاوة حديثها فزال توتري وأخبرتها أن لابد أن تلك الغرفة هي غرفة ذكية حتى تفعل ذلك، ابتسمنا وتلاشي التوتر، وتحدثنا قليلًا ثم استأذنتها وخرجت من الغرفة لأعدّ لها قهوتها المفضلة، استغرقت قليلًا من الوقت وحين عدت وجدتها ممسكة بالفرشاة وقد رسمت فنجانا يشبه فنجاني الذي أفضله، كانت الرسمة مذهلة شديدة الوضوح والجمال، وتشبه فنجاني كثيرًا، أبديت مدي إعجابي باللوحة، فابتسمت وأخبرتني أنها لم تكن تعتقد أنها سترسم مثل تلك الرسمة فهي لم ترسم منذ وقتطويل ولكن حين أمسك الفرشاة أحست بطاقة ونشاط جعلها تخرج بتلك الروعة والجمال، ابتسمت، استأذنتها أن أحتفظ بتلك اللوحة فوافقت، تناولنا القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث حتى انصرفت.

عدت لحياتي العادية، لذلك الشاطيء الذي أجلس عليه منتظرًا موجة مغامرة قادمة، مرّ أسبوع وأنا منهمك في العمل، أتابع الحوادث، وأقوم بتصويرها، أبحث عن مواضيع جديدة،

سبق صحفي أقتنصه، وذات يوم حدث ما غيّر مجري حياتي، ما جعلني أصبح شخصًا أندم على كوني إياه يومًا.

كان صباحًا كئيبًا، الشمس رفضت أن تستيقظ، والسحب المعتمة أخذت تمرح في تلك السماء المنهكة، سقط فنجان قهوتي بلا سبب، تحطم وتناثرت أجزاؤه، خرجت متعجلًا لأغطي حادثة حدثت ليلًا مع زميلي الصحفي، كانت حادثة دموية، حادث قتل لشاب في مقتبل العمر، وصلنا للموقع وكانت المفاجأة، جحظت عيناي من فرط المفاجأة والذهول، تسارعت أنفاسي كقطار قديم منهك يعبر أميالًا طويلة، اضطربت نظراتي وأنت أنظر لجثة الشاب المقتول، هذا الشاب المقتول لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها، كان نفس الشاب المرسوم في لوحة جاري، بنفس ملابسه، ونفس الخنجر المطعون به بكل تفاصيل نقوشه الدقيقة التي رأيتها في اللوحة، كانت التفاصيل مذهلة شديدة التطابق تدعو للحيرة والدهشة، قمت بتصوير الشاب عدة صور وعقلي يعمل كشلال هادر، مضي الوقت كدهر حتى أنتهيت، كانت كل التفاصيل تملؤني بالحنق وبالغضب، لم أتمالك نفسي ولا تفكيري، عدت للمنزل وقد قررت قرارًا كان أسوء قرار أخذته في حياتي كلها.

قضيت الليلة كلها في التفكير واسترجاع الأحداث ومحاولة الربط بينها واستخلاص قصة منطقية لما حدث، كانت القصة

الأقرب للتصديق هي أن يكون جاري الرسام هو الذي قتل الشاب، كانت كل التفاصيل تجعل هذا الاحتمال هو الأقرب للتصديق بالنسبه لي، ليست مصادفة أن يكون نفس الخنجر بنقوشه وتفاصيله الموجود في اللوحة هو نفس الخنجر الذي تم قتْل به الشاب، لابد أن مَن رسم تلك اللوحة هو من قتل الشاب، أو شريك في الجريمة على الأقل، وإذا كان شريكًا للجريمة فلما تبادر إلى ذهنه الإيحاء لجاري برسم تلك اللوحة؟ ثم ماذا سيستفيد جاري من كونه جعلني أشاهد تلك اللوحة؟ لابد أنه لم يكن يعلم أنني بحكم عملي كمصوّر صحفي للحوادث أني قد أشاهد تلك الجريمة وأربط بينها، هل هو قاتل مختلّ يرغب بالشهرة ويعلم أين طريقه إليها؟ لكنني تذكرت أني عندما سألته عن سبب رسم تلك اللوحة أخبرني أن الإلهام يأتيه في أي وقت، هل كان يضللني؟ هل هناك قاتل آخر وهو يتستر عليه مثلًا؟ لكن ما أثار ذهني حقيقة هو أنه كيف جعل الشاب يرتدي نفس الملابس، هل أجبره على ارتدائها قبل أن يقتله، وإذا فعل ذلك، كيف جعل نفس نظرة الرعب والألم المرتسمة على وجهه في اللوحة وفي الواقع نفسها، لقد أخبرني أنه قد رسم اللوحة منذ مدة طويلة، والشاب قتل بالأمس؟ كان التفسير الوحيد هو أن جاري يكذب بشأن لوحته، لقد قتله ثم رسمه وقد كذب بإخباري أنها منذ فترة طويلة، ارتحت لذلك التفسير وقررت

أن أكون حذرًا منه، أراقبه، لأعلمه بشأن الجريمة حتى أستطيع أن أربط بينها وبينه، أو أن أكتشف أي جريمة قادمة ينوي ارتكابها، وقد أقوم بسبق صحفي أنا وزميلي، عدت إلى البيت، تناولت بعضًا من الطعام وأنا مشوّش، كان ضوء غرفة الانتظار لازال ضعيفًا باهتًا وهو ما أصاب عقلي بالجنون، كنت أشعر أنه قد أصابه الوهن منذ أن زرت ذلك الجار الغريب، طردت تلك الأفكار من مخيلتي وذهبت إلى جاري، طرقت بابه، فتح الباب بنفس الطريقة السابقة، كان يرتدي نفس الملابس، وتحدث بنفس الكلمات، حتى إنني ظننت أنني أعاني من ظاهرة الرؤية الثانية، دخلت المكان بنفس تفاصيله السابقة، كل شيء كما بالسابق، كل شيء في مكانه، لم يتغير شيء تقريبًا، نفضت عن ذهني أية أفكار وسألته عن اللوحة التي رأيتها سابقًا، نظر إلي مندهشًا، كنا قد تحدثنا عنها سابقًا ولم أبدِ اهتمامًا شديدًا للدرجة التي أتي إليه في تلك الساعة لأسأل عنها، أردت أن أزيل شكوكه فأخبرته بأن صديقي الصحفي مهتم برسوماته حين أخبرته عنها، أخبرني أنه قد رسمها منذ فترة وأنه حين يمسك فرشاته يشعر بطاقة عجيبة ونشاط بالغ، كان كل ما يشغل بالي أنه يكذب، فاللوحة مرسومة في ليلة قتْل الشاب، لكن عبر تفكيري خاطر، ما طبيعة ذلك الشخص الذي يقتل شابًا ثم يجلس يرسمه؟ ثم كيف يرسم بتلك السرعة فالجريمة قد تمّت

في الواحدة ليلًا وتم اكتشافها في الصباح؟ شلّ ذلك الخاطر الغريب تفكيري، قطع تفكيري حديثه وهو يخبرني أنه في تلك الفترة قد رسم لوحةً أخرى يحبها، وسألني إن أردت الاطلاع عليها، كنت منهمكًا في التفكير لكنني أحببت أن أكتشف سره فوافقت، استئذنني بضع دقائق وعاد باللوحة الثانية، لم أكد أبصرها حتى تحول كل الفضول داخلي والقلق والتفكير إلى هلع وغضب.

كانت اللوحة تمثل فتاة شابة رقيقة، في غرفتها، تتدلي من حبل شنقت به نفسها، كان مصدر رعبي وفزعي أني كنت أعرف تلك الفتاة، كانت زميلتي في الجريدة، الفتاة الرقيقة التي أحبها قلبي، الفتاة التي تمتلئ بالحب والحيوية، الفتاة التي اختارها قلبي وقررت أن أرتبط بها، كان أكثر ما أثار هلعي هو أنها هي بكل تفاصيلها وحتى بشكل ولون ملابسها التي أعرفها جيدًا، أنتزعت نفسي من مشاعري وأمسكت بجاري من عنقه، سألته هل تعرف تلك الفتاة؟ هل رأيتها تزورني من قبل، أقسم بصوته الضعيف المتحشرج أنه لا يعرفها ولم يرها من قبل، وأن كل ذلك من نسْج خياله، كان صوته صادقًا، تذكرت أنه جاء للسكن بجواري منذ أشهر قليلة فقط، فلو كان صحيحًا أنه رسمها منذ فترة فكيف يعرف شكل زميلتي؟ كنت أفكر في زميلتي وحبيبتي، أصابني الهلع وهرعت إلى شقتي، مررت

بغرفة الجلوس، لفت انتباهي شيء جعل الرعب يرتسم مجسمًا على وجهي، فاللوحة التي رسمتها زميلتي، كانت تحوي فنجاني المفضل، بكل التفاصيل، إلا تفصيله صغيرة، لقد كان مهشمًا، أجزاؤه محطمة، بالضبط كما حدث اليوم معي، حاولت الاتصال بها، بعد محاولات كثيرة أجابتني، كان صوتها ممتلئًا بالدموع وهي تخبرني أنها لن تتحمل كل ذلك، وأن هنالك لعنة مخيفة أصابتها منذ آخر مرة زارتني، وأنها اليوم قررت أن تنهي كل ذلك، ثم أغلقت الخط، جن جنوني وأنا ألقي بسماعة هاتفي ثم أقفز من مكاني جريًا لأصل إلى منزلها، لا أدري كيف وصلت ولا كيف اقتحمت شقتها ولكن عندما وصلت إلى غرفتها كان المشهد الذي تكرر للمرة الثانية في نفس اليوم، زميلتي الشابة الجميلة المليئة بالحيوية والمرح معلقة في حبل، كانت قد انتحرت دون أن أدرك ما السبب الشيطاني الذي يجعلها تنهار بمثل تلك السرعة، لم أكن أعرف الأحداث التي تعرضت لها، ولا ما حدث في تلك الأيام، أخذت أفكر وأفكر ولكنّ سببًا وحيدًا لكل ذلك كنت أعلمه، كان سببًا قريبًا مني جدًّا، كان ذلك الجار الشيطاني غريب الأطوار، غلت الدماء في عروقي وأسرعت عائدًا إلى منزلي وأنا أضمر شيئًا رهيبًا، طرقت باب جاري، وعندما فتح لي ودخلت، جلسنا معًا في نفس الغرفة، بين نفس اللوحات، في نفس الجو الكئيب، كنت أنوي

أن أحادثه بالمنطق وبالعقل، بكل ما يعتمل في صدري من أسئلة، بكل ما يحيط به من غموض، ولكن اللوحات الكثيرة حولي، المليئة بالبشاعة والقتل، قد جعلتني أقدم على آخر شيء أتوقعه، خاصة من شخص مثلي، لقد قتلته، نعم قتلته، لم أشعر سوى بيدي تعتصر عنقه، والغريب أن النظرة في عينيه كانت نظرة غريبة، كانت نظرة ارتياح، وارتسمت على شفته ابتسامة هادئة، تركت عنقه في ذهول، حاولت أن أهرب من ذلك المنزل اللعين، لا أدري كيف وصلت إلى باب شقتي ولا كيف اندفعت داخلها مرتميًا على أقرب كرسي لي، ولكن ما حدث بعد ذلك جعل كل شيء ينتفض داخل جسدي.

وصلت إلى مسامعي طرقات على باب منزلي، انتفض جسدي وأنا أهتف بصوت مبحوح من بالباب، كان عاملًا لتلك الشركات التي ترسل الطرود من مكان إلى آخر، فتحت الباب بيد مرتعشة وقلب واجف، قام بتسليمي طرد كان أحدهم قد أرسله إليّ، لم أكن أنوي أن أفتحه أو أفكر به، ولكن اسم من أرسله هو ما جعلني على وشك الإغماء والسقوط أرضًا، كان ذلك الطرد باسم جاري الرسام، أرسله لي منذ مدة، التاريخ المدون ومكان الإرسال يشيران إلى أنه قد أرسله قبل أن يسكن بجواري، من عنوان سكنه السابق، في مدينة أخرى، وضعت الطرد على المنضدة وفي ضوء الغرفة المرتعش الذي شعرت

أنه يرتعش شاعرًا بخوفي وقلقي، فتحت الطرد، كان لوحة من لوحاته التي يرسمها، نزعت الغطاء من على اللوحة ثم تراجعت مصعوقًا، كانت اللوحة تصور وبكل الدقة وكل التفاصيل وبمنتهى الوضوح مشهد قتلي لذلك الجار الغريب المرعب، تراجعت في رعب وفي ذهول، ومع تراجعي أخذت أضواء الغرفة تتذبذب أكثر، أخذت أتراجع وأتراجع حتى لامست قدماي المقعد خلفي فسقطت منهارًا، وهناك، من داخل تلك اللوحة اللعينة، تحولت نظرة الارتياح في عيني جاري إلى نظرة متشفية، اعتدل داخل اللوحة وأخذ في الخروج منها، نعم لست واهمًا ولا أتخيل، أخذ جسده يخرج منها بسلاسة وسهولة حتى تحول إلى شخص كامل، أخذ يقترب مني ويقترب، ودقات قلبي المرتعبة تتباعد وتتباعد وتتباعد.



مذياع الرعب

«إن قوة الراديو ليست في أنه يتحدث إلى الملايين، بل إنه يتحدث عن كثْب وبشكل خاص لكل واحد من هؤلاء الملايين».

هالي فلاناغان

لا أستطيع إلا أن أفكر في الأمر، لست مصابًا بالاضطهاد أو ازدواج الشخصية، لربما كان من السهولة اتهامي بالجنون والاضطراب عن تصديق تلك الحكاية العجيبة التي وجدت نفسي فجأة في خضم أحداثها.

أنا شاب أعزب قد فاتني قطار الزواج، متوسط التعلم أسكن وحيدًا في شقة متواضعة من غرفة واحدة، أعمل بأجر يومي قد أكسب قوت يوم ويفوتني أقوات أيام، كانت غرفتي المتواضعة بسيطة بها أثاث مستعمل ترى في شقوقه قسوة الزمن ورعب الجوع والفقر، كان التيار الكهربي المغذّي لها متذبذب حتى لتشعر أنه من فرط قدمه وفقر الغرفة يأبى أن يدخل إليها، يترفع عن زيارتي كما يفعل معظم من يعرفني ويعرف حالتي، كانت غرفتي مظلمة، كئيبة، ككل أمنياتي التي لم تتحقق.

بدأت الحكاية عندما كنت عائدًا إلى منزلي ذات يوم، كنت حزينًا، متعبًا، مرقًا، أفكر فيما سأتناوله من طعام، أخرجت النقود من جيبي فوجدتها نقودًا قليلة، كالعادة، لكنني لم أهتم، فلقد تعودت على ذلك، تناقلت خطواتي بلامبالاة، وبلا هدف، كأني أخشى العودة إلى منزلي، ولماذا أعود، فأنا وحيد، لا يوجد أحدًا يهتم بي، ولا وسيلة للترفية عني، كنت أمرّ في الشارع الذي أسكن فيه، الشارع المظلم سوى من بعض الأنوار العابرة لسيارة هنا أو هناك، أو من أضواء محل شاحبة ضعيفة كأنها من فرط ضعفها تظلم أكثر مما تضيء، كانت عيناي تتناقل هنا وهناك، حتى لمحت شيئًا عجيبًا غير مألوف لي، على ناصية الشارع الذي أسكن به كان هناك دكان قديم في ركن مظلم، تشعر من فرط قدمه أنه عجوز منحني الظهر قد جلس يستريح من فرط الإنهاك في ذلك الركن، اقتربت بخطوات غير منتظمة، انتابتني تلك القشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث، طردت الفكرة من رأسي واقتربت، كان صاحب الدكان رجلًا عجوزًا، يجلس خارجه، كان ثمة شيء غريب بخصوصه، كان وجهه غامضًا، لا تستطيع إدراك ملامحه أو تعبيراته، كان كأنه يبتسم ويعبس في نفس الوقت، مهما دققت في وجه لن تستطيع أن تفسر ذلك، وكان نصف وجه يضحك والآخر يعبس، دفعني الفضول للاقتراب منه، كان

الدكان يعرض أشياء متنوعة وكثيرة، كان ما يجمع بين الجميع أن كلها كانت قديمة، تعلوها الأتربة، جذب انتباهي مذياع متوسط الحجم، من ذلك الذي يستخدم البطأربات عوضًا عن الكهرباء، ولما كنت أعشق البرامج الإذاعية، خاصة برنامج شهير يحكي فيه الناس عن حيواتهم، عن مشاكلهم وأحلامهم، ولما كنت أبحث عن شيء يرفّه عني في وحدتي، فقد قررت أن أشتري ذالك المذياع، وضعت يدي في جيبي، أبحث عن نقود فيها، أخرجت النقود وأحصيتها، كنت أعلم أنها قليلة، نظرت إلى وجه صاحب الدكان العجوز فخيّل إليّ أنه يبتسم ابتسامة غريبة، كأنه قرأ أفكاري، عرضت عليه النقود، فقبلها، اشتريت المذياع وعدت إلى منزلي فرحًا مسرورًا من كل قلبي.

أصبح ذلك المذياع هو الشيء الوحيد الذي يدفعني للمقاومة، الشيء الوحيد الذي يعطيني أملًا في الحياة، كنت أحب ذلك المذياع، أنتظر منتصف الليل لأسمع برنامجي الشهير الذي أعشقه، كان المذيع يتحدث عن تجارب البشر وحكاياتهم الغريبة، حتى حدث ما جعلني أشعر بالرعب والفزع من ذلك المذيع شخصيًا.

كان الجو باردًا، والسماء لم تفحص عن نجومها بعد، التيار المتذبذب يضفي جوًا مرعبًا على الأثاث، بذلك الخيال الذي يتحرك كالأرواح السوداء التي ترغب في أخذ روحك، كنت قد

بدأت في إعداد طعام بسيط أسد به صرخات شيطان جوعي، حتى بدأ برنامجي الإذاعي المفضل، كنت أدندن مع المقدمة التي أحفظها فحدث ما هزّ كياني كله، كان المذيع يتحدث في حلقة جديدة عن شخصية وصلت منها رسالة، كان الرسالة تقول أنا س.ط شاب أعزب قد فاتني قطار الزواج، متوسط التعلم أسكن وحيدًا في شقة متواضعة من غرفة واحدة، أعمل بأجر يومي قد أكسب قوت يوم ويفوتني أقوات أيام، أخذت الرسالة تصفني وتصف غرفتي وأحوالي، بل حتى تصف الطعام الذي آكله، جن جنوني وكاد أن يطير عقلي، وأخذت أعتصر ذهني وأنا أحاول أن أفهم ما حدث وكيف وصلت تلك الرسالة إلى البرنامج، ومن كتبها، حتى حدث أمر خارق لم يحدث لشخص آخر قط.

كنت قد بدأت أفكر من ذلك الشخص الذي قد يراقب شخصًا مثلي ويرسل رسالة عنه إلى برنامجه المفضل، من ذلك الذي يهتم بشخص لا يملك مالًا أو منصبًا مثلي، هل هو جاري غريب الأطوار الذي لا أراه سوى نادر؟ ولكنه لا يعلم عني شيئًا تقريبًا، هل هي جارتي العجوز التي قد حكيت معاها بعضًا من مشاكلي وأجزاء من حياتي؟ لما قد تفعل ذلك وقد ائتمنتها على أسراري، شعرت بالغضب ولكنني تذكرت أنها لا تجيد القراءة والكتابة، أصابني الغضب أكثر وأنا أحاول أن أعرف من ذلك الشخص الذي يراقبني ويهتم بكشف أسراري، خلدت

إلى النوم وأنا أشعر بأن غرفتي مليئة بآلاف العيون التي تراقبني، وأن آلاف المستمعين لذاك البرنامج يرونني ويعرفون تفاصيل حياتي وحكايتي، استيقظت وقمت بتناول الفطور، ثم سمعت دقات الباب، كان الطارق شخصًا يسأل عني ويعرض على عملًا من الأعمال التي أقوم بها نظير أجر يومي، لكنني كنت مصابًا بشيء من الإحباط ولم أرغب في العمل اليوم، قمت بزياره جارتي وحاولت سبْر أغوارها فلازال الشك يراودني في كل من حولي، كانت شخصًا طيبًا أعدت لي شيئًا من الحلوى التي أحبها وأعطتني أيها كي أتناولها في الوقت الذي أرغب به في منزلي، عدت إلى المنزل وقمت بترتيبه ترتيبًا بسيطًا وانشغلت بأشيائي التافهة وانتظرت برنامجي الإذاعي المفضل، بدأت المقدمة وأنا أدندن لحْنها الشهير وأحضر الحلوى التي أعدتها جارتي كي أتناولها، كان كل شيء طبيعيًا وعاديًا حتى حدث ما جعل جسدي يقشعر وأتسمّر في مكاني.

كان المذيع يحكي عن رسالة أخرى وصلته من صديق البرنامج س.ط يتحدث فيها عن إحساسه بشيء من الإحباط وعدم رغبته في العمل اليوم وعن جارته العجوز التي لم تتعلم القراءة ولا الكتابة والتي أعدت له الحلوى التي يحبها كي يتناولها في منزله والتي قرر أن يتناولها وهو يستمع إلى برنامجه الإذاعي المفضل الليلة، عند تلك النقطة أصابني الفزع وجن

جنوني وأنا أحاول أن أفهم ما حدث وكيف يعرف كل تلك التفاصيل بتلك الدقة، لم أستطع النوم ليلتها، احمرت عيناي من عدم النوم واحترقت أعصابي من كثرة التفكير ومرّ الوقت بطيئًا مملًا بلا طعام ولا نوم حتى موعد الحلقة اليومية من برنامجي الإذاعي المفضل، بدأت المقدمة بذلك اللحن الشهير الذي لم أعد أدندنه بل أصبح بمثابة الرعب المجسم لي وبدأ المذيع في قول ما أصبح شبه اعتيادي، وصلت رسالة من صديق البرنامج س.ط يتحدث فيها عن يومه وكيف ظل بلا نوم وأنه في ذلك اليوم قد سمع خطوات لص قد اقتحم غرفته وحاول قتله، كنت منتبهًا وأنا أفكر وأحاول أن أضحك بأن ذلك كان مزحة سخيفة، حتى حدث ما جعل الدم يهرب من عروقي، كانت هناك بخارج غرفتي خطوات ثقيلة وبطيئة، تقترب، وتقترب، وتقترب.

احتبست أنفاسي من فرط الترقب، اتجهت نحو الباب بارتعاشة وحاولت أن أستجمع شجاعتي في صيحة خرجت رغمًا عني متحشرجة وأنا أسال من بالخارج، توقفت الخطوات فجأة، زاد رعبي، حاولت أن أصيح مرة أخرى، لكن خانتني شجاعتي، اتجهت إلى المطبخ، أخذت سكينًا كبيرًا حادًّا، وقررت أن أهاجم من بالباب، حتى لو كانت جارتي العجوز نفسها، كان صوت المذياع يوترني، فاتجهت بعصبية إليه لأغلقه، بل قمت بفتحه وأخرجت بطاريته وطوحت بها بعيدًا،

انتفض جسدي حين ارتفعت دقات الباب، اتجهت شاهرًا السكين إلى الباب، فتحت الباب للذي أحدث صريرًا مُخيفًا لم أعهده منه، كانت جارتي العجوز هي من بالباب، استغربت كثيرًا فهي لا تزورني في تلك الساعة من قبل، أخبرتني بصوت واهن أنها تعاني من صداع يمنعها النوم، وتسألني إن كنت أملك شيئًا يبعده عنها، دعوتها للدخول، فحدث شيء أثار الرجفة في صدري، عندما خطت جارتي الباب، تذبذب التيار بشدة، كان مصباح الغرفة مع التذبذب يلقي بالظلال على الغرفة كلها، إلا على وجه جارتي، كان الضوء ثابتًا، حتى إنني شعرت أنه يخشى منها، أصابتني الشكوك والوساوس، لاحظت أن جارتي تخطو داخل البيت بخطوات بطيئة وثقيلة، كانت تمشي بكل يسر، مع أنها تعاني من الآلام في ركبتها، كانت حدقات عينيها السوداء تتسع وتضيق كدائرة تكبر وتصغر في انتظام دون أدنى سبب لذلك، كانت مخيفة، كان صوت مذيع برنامجي المفضل يدوي داخل رأسي، لص حاول قتله، حاول قتله، حاول قتله، حاولت أن أطرد الفكرة من رأسي ولكن خوفي من جارتي جعلني أقدم على خطوة مجنونة، كان جالسة في غرفتي وتظاهرت بأني أحضر لها الدواء، سقط السكين من يدي بلا سبب، لكنني هجمت عليها وأمسكت عنقها من الخلف وأخذت أعتصره، كان صوت المذياع، وصوت الخطوات الثقيلة، اتساع حدقاتها، يمتزجون

داخل عقلي فيصيبونني بالجنون، كنت أعتصر وأعتصر وأعتصر عنقها حتى لفظت أنفاسها بعيون متسعة ونظرة لم أر مثلها قط، كانت نظرة كرة وانتقام، لم أكد أنتهي من قتلها حتى أصابتني ضربة عنيفة فوق رأسي، سقطت وأصابني الدوار ولكن من بين غيوم عيوني كنت قد رأيت من فعل ذلك، كان شخصًا ملثمًا انتهز فرصة وجود الباب مفتوحًا وانشغالي بجارتي، كان يبحث في الغرفة عن أي شيء يستطيع سرقته، لكنني اغتنمت فرصة وجود السكين بجانبي فهجمت عليه وطعنته عدة طعنات، أغلقت الباب بسرعة وجلست بأنفاس لاهثة، ثم حدث ما جعل الرعب مجسمًا على قسمات وجهي، لقد ارتفع صوت المذياع بلحن برنامجي المفضل الشهير، وصوت المذيع المشهور يقول رسالة من صديق البرنامج تقول أنا س.ط، لقد قُتلت جارتي العجوز للتوِّ، كانت أنفاسي اللاهثة تتسارع، وضحكات المذياع تتعالى وتتعالى وتتعالى.



المرآة

«المرايا لا تكذب، إنها تظهر فقط جزءًا من الحقيقة، المرآة المكسورة يمكنها تكبير وجه حتى يصبح مثل كوكب صغير، هل هي مشكلة الانعكاس؟ إنها وجهة نظر».

لارا بيوتس

حتى هذه اللحظة لا أستطيع التقاط أنفاسي مما حدث، ما زالت الرجفة تسري في أوصالي والخوف يغزو بكل شراسته كياني، أدرك أن الأمر مخيف، والمرعب أكثر أني لا أستطيع تفسيره.

خطت أول حروف حكايتي في منزل جدي، كان منزل جدي القديم يقع في الريف، في منطقة ليست بالمهجورة ولا المأهولة، منزل صغير به القليل من الأساس البسيط والجميل، كنت أحب أن أزور جدي كل يوم جمعة، نجلس معًا ونتحدث حول أيام شبابه، يحكي لي مغامراته وذكرياته، كانت أحاديثه جميلة، مليئة بحكمة الزمن ومرح المغامرة، كنت أقضي معه ساعات مبهجة، دون كلل أو ملل، حتى جاء ذلك اليوم الذي

بدأت فيه الحكاية، كان الوقت عصرًا، الشمس سخية بأشعتها، الطيور في الخارج تدندن مع بعضها البعض، الوقت يمضي مسرعًا كأرنب صغير يشتاق لحضن أمه، كان جدي منهمكا في شيء ما يفعله، قمت إلى حجرة نومه كي أصفف شعري وأرتب ملابسي، في الغرفة مرآة قديمة ذات نقوش غريبة، كانت تبعث في قلبي الرهبة كلما نظرت إليها، بمجرد أن رأيتها سرت في جسدي قشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث، اقتربت منها لأرى كيف هي ملابسي، ابتسمت، كان شكلي جميلًا إلى حد ما، استدرت لأعود لجدي، لكن شيئًا ما جعلني ألتفت للخلف، شيء لم ألاحظه إلا عندما دققت النظر مرة أخرى، اتسعت عيناي رعبًا، كنت على وشك الصراخ والهرب بأقصي سرعة، فما حدث كان خارقًا للطبيعة إلى أقصى حد، كانت المرآة تعكس تفاصيلي بكل وضوح، عدا شيء واحد فقط كان مختلفًا، حزامي، كان بكل دقته و تفاصيله إلا تفصيلة واحدة، لونه، كان حزامي أسود اللون، لكن انعكاسه في تلك المرآة كان أحمر قانيًا، كأنه مغموس في الدم، لمست حزامي ونظرت إليه، لازال كما عهدته أسود اللون، جاف الملمس، دققت ثانية في المرآة لكنه لازال فيها أحمر قانيًا، تحسست المرآة بكل خوف، كان ملمس النقوش يثير في قلبي الذعر، كأنها ابتسامات آلاف

الشياطين التي تنتظر فرصة، تنتظر أن تدير وجهك ولكنها مع ذلك كانت طبيعية في كل شيء، عدا لون حزامي. خرجت من الغرفة إلى جدي وأنا مشتت الفكر، في عقلي ألف ألف سؤال ولكن لساني لا يجرؤ على البوح بها. مرت الأيام وأنا أفكر فيما حدث، كان حتى جاء يوم زيارة جدي، جلسنا نتسامر ككل مرة، سألت جدي عن أي شيء غريب يحدث في منزله، رد أن كل شيء بخير، الأمور هادئة وطبيعية، أخذت أفكر فيما أفعل، لم يكن لدي أي فكرة عما أفعل ولكنني قررت الدخول مرة ثانية، كنت هذه المرة أرتدي حزامًا بُنيًا، حاولت أن أقنع نفسي أنه ربما انعكاس ما للألوان كان سبب اللون الأحمر في المرة الأولة، دخلت إلى الغرفة ببطء وترقب، كانت نبضات قلبي ترتفع كدقات هندي أحمر وقت الحرب، وقفت أمام المرآة وكلي وجل، هذه المرة لم أكن مستعدًا لأي مفاجأة، وكنت على حق، فعلى امتداد نظري، في تلك المرآة الرهيبة وجدت لون حزامي البني، أحمر قانيًا، نفس لون الدم السابق، هذه المرة التقطت أنفاسي وجلست أفكر، فجأة عبرت بذهني فكرة مجنونة، كنت أهم أن أطردها من خيالي ولكنّ شيئًا ما دفعني لأن أشرع في تنفيذها فورًا، لقد قررت أن أحدث المرآة، نعم، لا أدري لما ولكنني قررت، تحدثت معها، لِم تلونين حزامي بلون أحمر، لِم تجيبني، أخذت أتحدث وأقول، لما لون أحمر،

لا تحب ذلك اللون، لا أحب الدم، لا أحب القتل، لا أحب...، لم أكمل كلامي بسبب شيء عجيب حدث، عندما ذكرت كلمة قتل، اختفى اللون الأحمر من حزامي، وعاد إلى طبيعته، كدت أن أقفز فرحًا ولكن فرحتي لم تكتمل فلقد حدث شيء أغرب، كنت أرتدي قميصًا مقسمًا إلى مربعات كبيرة متساوية، بمجرد أن اختفى لون الحزام الأحمر، اختفت عدة مربعات بشكل غير منتظم، وتبقت الأخرى، كاد يغمى علي من فرط الانفعال، شيء ما غريب يحدث، هذه المرآة تحاول قول شيء ما، تحاول أن تجعلني أفهم، لما اختارتني أنا بالذات، ماذا تحاول أن تقول لي، لا أعلم ولكن لا أستطيع التخلص من هذه الأسئلة ولا من فضولي ناحية هذه المرآة. أخذت المرآة وانعكاسها كل تفكيري، وراءها سر ينبغي أن أكتشفه، كانت المربعات المختفية تثير حيرتي أكثر، كنت أعتصر تفكيري محاولًا معرفة ماذا تحاولي إخباري به تلك المرآة العتيقة، اهتدى تفكيري إلى حيلة، ماذا يحدث لو رسمت تلك المربعات الموجودة والمختفية على ورقة حتى أفكر فيها بوضوح، قررت العودة إلى المرآة، نظرت مرة ثانية بعمق، كانت المربعات المختفية تظهر كأنها عشوائية، لكنني كنت متأكدًا أنها ليست كذلك، مِلت ناحية الأمام حتى أستطيع التحديق، رأيت شيئًا لم أنتبه إليه في المرة الأولى، كان مربعان من المربعات الموجودة به نقطة

سوداء صغيرة، الأعلى في أقصى اليمين والآخر في الأسفل، كنت أعتقد في المرة الأولى أنها نقطة في المرآة نفسها، ولكنني أدركت أنها موجودة فقط في انعكاسها، كانت مرتبطة بقميصي وغموضه، نقلت النقطتين في المربعات المحددة على الورق، وأخذت أفكر كثيرًا وكثيرًا، أصابني التعب من كثرة التفكير وبحركة لاإرادية أخذت في تدوير الورقة من أعلى ناحية اليمين ثم أسفل واليسار وأعيدها للأصل مرة أخرى مثلما يدور عقرب الساعات، فجأة قفزت فكرة مجنونة إلى رأسي فشرعت فورًا في تنفيذها، أملت الورقة ناحية اليمين بحيث يوازي المربع الأول المنقوط بيت جدي، وأخذت المربعات تمثل بيوت جيران جدي حتى وصلت إلى المربع المنقوط الأخير، كان يمثل بيت جار جدي حسين صابر، هرعت إلى حجرة جدي، وقفت أمام المرآة بكل لهفة، تحدثت بصوت عال، كانت المربعات خريطة، والمربع المنشود يمثل بيت حسين صابر، أليس كذلك؟ مرت لحظة من الصمت، خيّل إليّ أن المرآة ستتحدث معي، لكن كل ما حدث أن عاد شكل قميصي إلى سابق عهده، ظهرت المربعات المختفيه و عاد كل شيء ينعكس طبيعيا، لهثت من فرط الانفعال، ثم جلست على أقرب كرسي محاولًا التقاط أنفاسي اللاهثة، خرجت إلى جدي أسأله عما يعرفه عن بيت حسين صابر، نظر جدي إلي بغضب وارتياع، كانت نظرته مزيجًا

من الخوف والرجاء، كأنه يخاف علي من مصير مجهول ويرجو مني أن أتراجع عما أفكر به، أول مرة أرى كل ذلك الغضب في عينيه، صدر من فمه صوت صارم يخبرني بأن لا شأن لي بذلك البيت، وألا أتحدث لأحد عن ذلك، حتى ولو كان الحديث بيني وبين نفسي، حاولت أن أستشف من جدي لما هو غاضب كل هذا الغضب، لكنه كان صارمًا، ثم ما لبث أن احتضنني وهو يخبرني، أن أدع ما يحدث يحدث، وأن بعض الأسرار قد وجدت لتظل كما هي أسرار، كان كلام جدي غامضًا، ولكنه دفعني أكثر لمحاولة اكتشاف ذلك السر الرهيب، كنت متعجبًا من موقف جدي، فهذه من المرات النادرة التي يغضب فيها أو يمنعني من فعل شيء ما، قررت ألا أحادثه في الموضوع ولكن ذلك لن يمنعني من البحث والتحري.

كنت أعرف بيت عم حسين، لأنني كنت ألعب بالقرب منه في طفولتي، قررت أن أقوم بجولة حوله وأبحث عن أي شيء يقودني لحل ذلك اللغز العجيب، كان بيت عم حسين مكونًا من طابق واحد تحيط به أرض زراعية من كل جانب، كان البيت حديثًا لكن ألوانه كانت شاحبة كأنه مبني من قديم الزمن، عرفت فيما بعد أن صاحبه قد اختفى في ظروف غامضة وأن الناس يتهامسون أن الجن قد غضبوا منه واختطفوه إلى عالمهم السفلي، وأن الشرطة لم تعثر عليه، وأن أولاده بذلوا

كل جهدهم ولم يعثروا عليه حتى إنهم قد استعانوا بمُحضّري الأرواح وحفلات الزار لإرضاء الجن وجعلهم يُفرجون عنه، الغريب أن ألوان البيت الشاحبة لم تكن كذلك إلا يوم اختفائه، كانت قبلها جديدة لامعة، مع كل ذلك الحديث حول عم حسين وبيته، دفعني الفضول للإقدام على أغبى فعل يمكن أن أفعله، قررت أن أزور ذلك المنزل، وأن أزوره ليلًا.

كان أولاد عم حسين قد هجروا المنزل إلى منزل آخر ولكنهم كانوا يعودون إليه أحيانًا بالنهار، لذا فقد وجدت أن أفضل فرصة أن أفتش البيت ليلًا، قمت بإحضار كشاف معي وتسلحت بكل شجاعتي وذهبت لذلك البيت، قررت أن أدور حوله عدة مرات قبل أن أدخله، كنت أدور ببطء وأنا أتلفت يمينًا ويسارًا بكل ترقب، بينما كنت أدور أبصرت شيئًا جعل نبضات قلبي ترتعش داخل صدري، على البعد داخل الحقل وفي ضوء القمر الفضي كان خيال المآتة يشير إلي، نعم، كان يخفض يده اليمنى ثم يدور نصف دورة في مواجهة المنزل ويرفع يده اليمنى مرة أخرى ثم يعود إلى وضعه الأول، سرت بخطوات مرتجفة إلى باب البيت وعندما وصلت نظرت للخلف في توجس فوجدت خيال المآتة قد عاد ثابتًا لا يتحرك.

بينما أنا بجوار الباب لمحت شيئًا غريبًا، كانت النباتات حول المنزل طبيعية خضراء إلا من جهة واحدة أسفل نافذة على يمين الباب، كانت حمراء قاتمة كأنها زرعت ورويت بدم بدلا من الماء، مددت يدي أخذت واحدة وعدت إلى باب المنزل، انفتح الباب بسهولة كأنه يدعوني للدخول، دخلت وقلبي غائص داخل صدري وصوت أنفاسي يرتفع، كان الظلام شديدًا إلا من نور كشافي، نظرت إلى ساعتي بشيء من التوتر، فوجدت شيئًا مستحيل أن يحدث، كانت عقارب ساعتي مختفية إلا عقرب الساعات، كان يشير ببطء إلى الساعة التاسعة ثم الثانية ثم الواحدة ثم يلمع مرة أخرى، ثم السابعة ثم الواحدة ثم يختفي لفترة قليلة ثم يشير إلى الثانية، هكذا في دورات متصلة يفصل بينهم ثوان معدودة، أحسست بالذعر خاصة عندما ظهر ما كنت أخشاه، كان باب الغرفة المجاور للباب الرئيسي والمصاحب للنافذة التي تحتها النباتات الحمراء مفتوحًا، وفي الظلام كان هناك ظل لرجل يتكيء للأمام وينظر للخلف من فوق كتفه، كما تفعل حين تنظر للخلف بوجهك دون أن تستدير بجسدك، كان ظلًا أبيض كأنه طيف ومكان العينين كانت فجوتين سوداوين، وجهت كشافي بسرعة ناحيته فلم أجد شيئًا، أعدت الكشاف فظهر لي الطيف الأبيض مرة أخرى، كان الفضول يحركني هذه المرة خطوت داخل الغرفة متوقعًا أن أرى كل شيء غريبًا

لكن ما رأيته لم يخطر لي على بال قط، كانت الغرفة فارغة تمامًا، وفي الحائط الأيسر منها مرآة تشبه مرآة جدي تمامًا لكنها مصنوعة من نور تتخلله خطوط سوداء ترسم تفاصيلها الدقيقة، وعلى الحائط المقابل كانت دائرة كبيرة من الضياء ترتسم خارجة من تلك المرآة مثلما يحدث في أضواء المسارح، تحركت قليلًا لأرى ماذا يوجد، ارتسم ظل لشخصين داخل تلك الدائرة يتحركان مثل خيال الظل، كان الظل الأول كبيرًا والآخر صغيرًا، ثم أخذ الظل الثاني يكبر حتى أصبح في حجم الأول ثم دبّت الحياة فيهما، وكان من الواضح أنهما يتشاجران من حركة الأيادي وملامح العصبية في تحركهما، استغرق الشجار وقتًا قليلًا، ثم استدار أحد الظلين وهمَّ بالابتعاد عن الآخر، لكن الآخر رفع يده بما يشبه سكينًا وطعنه في ظهره، حينما سقطت الظل الأول حمله الظل الثاني، ثم حدث شيء عجيب حقًّا، خرج الظل من الحائط تتبعه دائرة الضوء حتى وصل إلى منتصف الحجرة، ثم انحنى على الأرض كأنه يقوم بدفنه، بمجرد أن انتهى اختفى من أمامي، تحركت للأمام محاولًا تفحّص منتصف الحجرة، لم أكد أخطو خطوتين حتى نهض الظل المدفون منتصبًا في منتصف الحجرة وبدأ يتحرك نحوي، عند هذه النقطة خارت شجاعتي فقررت أن أركض هاربًا من ذلك البيت الملعون، عدت إلى منزل جدي وقررت أن أجمع

المعلومات عن ذلك البيت، علمت أن عم حسين اختفى في أواخر سنة ٢٠١٧ وأنه كان دائم الشجار مع ابنه الأكبر بسبب تفرقته في معاملته لإخواته، عند هذه النقطة التمعت الأفكار في مخيلتي، ذهبت بكل لهفة إلى بيت جدي، وقفت أمام المرآة وبصوت عال تحدثت، فسرت كل الظواهر، اللون الأحمر كان قتلًا، واختفاء المربعات كان خريطة وعقرب الساعة كان تسعة ثم اثنان ثم واحد ثم اختفاء سريع ثم واحد مرة أخرى ثم سبعة ثم واحد ثم اختفاء ثم اثنان، التاسع والعشرون من الشهر الحادي عشر لعام ألفين وسبعة عشر، يوم اختفاء عم حسين، ثم الظلان المتشاجران والجريمة، عم حسين وابنه يقتله، لابد أنه دفنه في نفس موقع الظل، كتبت كل التفاصيل في خطاب وأرسلته بتوقيع مجهول إلى الشرطة، في اليوم التالي فتشت الشرطة البقعة التي حددتها لهم في الخطاب فوجدوا جثة عم حسين والسكين الذي قتله به ابنه، أثبت الطب الشرعي أن البصمات هي بصمات ابنه، تم القبض على ابنه ومحاكمته، والغريب أن ألوان البيت الباهتة عادت كالسابق عهدًا، جديدة ولامعة، عدت إلى بيت جدي فرحًا وجدت كل شيء على ما يُرام، عدا شيئًا بسيط واحد، مرآة جدي العتيقة من حجرته قد اختفت!



الشجرة الملعونة

«بدون ظلمة لا شيء يولد،
كما لا شيء يزهر بدون ضوء»

مي سارتون

أعرف أن ما حدث لي سيبدو عجيبًا ومبهمًا، لكنني منذ تلك اللحظة قد تغيرت حياتي تمامًا، لم يعد الظلام هو ما يرعبني، أصبح الرعب يصيبني نهارًا، تحت ضوء الشمس الساطع، وبين الجميع وليس حينما أصبح وحيدًا.

كان الطريق إلى مدرستي طريقًا ريفيًا ممهدًا، كانت الحقول على جانبيه جميلة وخضراء، تبعث في النفس ارتياحًا وسرورًا، كنت أعشق الذهاب إلى مدرستي وحيدًا، أستمتع بضياء الشمس الساطع، وخضرة الحقول الزاهية، كنت أحيانًا أتامل ما حولي، أو أركض قليلًا، أركل الاحجار الصغيرة ضاحكا، و أحيانًا أطارد ظلي محاولًا بسخرية أن اسبقه، في الطريق شجرة عتيقة، متهدلة أغصانها كأنها عجوز لم تعد تقوى على المشي أو الحياة، كنت أمر بها كل يوم صباحًا وأنا ذاهب إلى مدرستي،

أحيانًا كنت أشعر أنها ترمقني بغلٍّ وغضب، كانت تبعث في قلبي قشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي أن شيئًا ليس على ما يرام سوف يحدث، كنت أضحك منه، وأحيانًا كثيرة أحاول أن أداعبها وأقترب منها ألمسها، لكنني من أعماق قلبي كنت أعتقد أن حتى الطيور تشمئز منها، فلم أجد يومًا طائرًا واحدًا على أغصانها.

كان صباحًا مشمسًا، وكنت مسرورًا مرحًا وأنا أستعد للذهاب للمدرسة، أخذت حقيبتي وركضت في الطريق، حاولت أن أسبق ظلي، كنت أركض خلفه ولكنه كان كل مرة يسبقني، كان الجو بديعًا، والسماء صافية، اقتربت وأنا أركض من شجرة الطريق العتيقة، كنت لا أزال أطارد ظلي وخطر لي خاطر أن أذهب إلى الشجرة، عندما وصلت أصابتني أكبر صدمة في حياتي، شعرت بالرعب الشديد لدرجة أنني تسمرت في مكاني، كل شيء بدأ يرعبني، حتى ضوء الشمس الدافيء ولون الحقول الخضراء، كان الرعب ينتابني لأنني ولأول مرة لاحظت شيئًا غريبًا، كانت تلك الشجرة بلا ظل، نعم كما سمعتني، كل ما حولها يلقي بظلاله على الأرض الممهدة، أما تلك الشجرة فقد كانت قابعة كمارد ليس له ظل ولا أثر، حتى إنني عندما اقتربت منها اختفى ظلي، تراجعت للخلف بكثير من الخوف فظهر ظلي مرة أخرى، كانت البقعة التي تحتها الشجرة تمتص أي

ظل على الأرض مع أن الشمس ساطعة والضوء يغمر المكان، أصابني هلع شديد وفكرت في الفرار والعودة، ولكن شيئًا أغرب قد حدث!

كانت الطيور فوق الأشجار الأخرى تحدق بي، وكلما اقتربت من الشجرة كانت تصيح وتفزع بأصوات عالية، كأنها تحذرني، أو كأنها تخشى هي الأخرى من غضب تلك الشجرة، كانت أفرع الشجرة خالية إلا من القليل من الاأوراق، ولاحظت كلما اقتربت كانت أطرافها ترتفع قليلًا كأنها مخالب توشك على الإمساك بي وافتراسي.

كانت الشمس ساطعة والجو بديع، لا وجود لأية رياح أو أتربة، لكن أسفل تلك الشجرة كانت الأتربة ترتفع على شكل دائرة سنتيمترات قليلة عن الأرض، كانت تشبه الضباب الذي يلف الأشياء بالغموض وبالخوف، ممتزجة مع أصوات حفيف الشجر، كأنها خطوات حثيثة لكائن مخيف يختبي داخل تلك الشجرة.

كانت لتلك الأتربة وذلك الحفيف تأثير عجيب على جسدي، كانت تبعث فيه الخدر والدوار بعقلي، كانت تجذبني نحو الشجرة، كنت أشعر بنداء خفي يسري في أوصالي، نداء دفعني لفعل شيء ستظل ذكراه تطاردني متي أحيا.

كان النداء يدفعني أن أقترب، أن ألمس تلك الشجرة، اقتربت، أحطاني الدوار أكثر، اقتربت خطواتي ببطء أكثر، وامتدت يدي كمن يفقد أي إرادة حرة له وقمت بلمس تلك الشجرة.

ما حدث بعد ذلك سيظل يطاردني أبد الدهر، سيظل يمثل كل كوابيسي، وخوفي وفزعي من كل ما هو مشمس وصاف وجميل، فما حدث كان كارثيًا.

امتدت يدي بدافع من ذلك النداء الخفي لكي ألمس تلك الشجرة، كانت يدي تمتد ببطء كمن تحول إلى شخص إلي توجهه قوة أخرى، أصابني ملمس الشجرة بصدمة دفعتني أن أفيق قليلًا من تلك السيطرة، كان ملمس تلك الشجرة الخشنة يشبه ملمس جلد بشري، كان بنعومته يتناقض مع مظهرها الخشن، وكنت أستطيع أن أمسك بجزء منه كمن يمسك بجزء من جلد يده، كان ذلك الملمس مرعبًا، وكان يعطي شعورًا مفزعًا بأن تلك الشجرة حية تنبض، اشترك ذلك الملمس مع صوت حفيف الشجر القليل الصادر من تلك الشجرة في رسم صورة كائن مخيف متحشرج الصوت في مخيلتي، أو لربما كانت تلك الحقيقة فعلا، لا أدري، انتابتني كثير من الأفكار المرعبة التي لم تمنعني من أن ألمس تلك الشجرة مرة أخرى، هذه المرة أخذت أتحسسها قليلًا قليلًا، كانت أصابعي ترتفع

ببطء وترقب، عند منتصف الشجرة حدث شيء غريب جدًّا، كانت أصابعي قد لمست بقعة أكثر دفئًا ونعومة مما حولها، لم تكد تمسها أصابعي حتى وصلت مسامعي صوت آهة خافتة، تراجعت أصابعي بحركة خاطفة، ثم قررت أن ألمس تلك البقعة مرة أخرى.

حين لمست تلك البقعة مرة أخرى شعرت بنبض يشبه النبض البشري، كان الرعب قد بلغ مني مبلغه، حاولت الهرب، ولكنني قبل أن أهرب أبصرت فرعًا من تلك الشجرة يحمل ثمرة وحيدة تشبه التفاح، إلا أن لونها كان ذهبيًا، كان الفرع الذي يحملها بلوريًا، تنعكس أشعة الشمس عليه كآلاف الشموس الصغيرة المتناثرة، كان منظرها خلابًا، يسحر الألباب، كانت تدعوني للاقتراب، للاستكشاف، كانت تناديني لكي أحصل عليها، اقتربت بتوجس، بخطوات مترددة، بأنفاس مسموعة، وقطرات عرق تتسابق لتغرق جبهتي نزولًا إلى وجنتي، امتدت يدي لأقتطف تلك الثمرة، كان ملمسها مخمليًا، يثير الرهبة والتعجب، تغلبت على شعوري ذلك وأنا أمد يدي وأقتطف تلك الثمرة، وأضعها في جيبي، كان ذلك أقصى ما يتحمله قلبي فقررت الهرب والعودة إلى منزلي، حين عدت إلى المنزل لم أجد والدي، أخرجت تلك التفاحة التي حصلت عليها، كان نداء الشجرة الخفي يتردد داخلي، يدفعني للقيام بأمر بدا لي

مجنونًا تمامًا، كان النداء سحريًا، لذا استجابت أطرافي، رفعت التفاحة إلى فمي، وبدأت في التهامها، كان طعمها لاذعًا، مفزعًا، لذا فقد سقطت من يدي، لكن طاقة غريبة قد سرت بداخلي، كنت أشعر أن كل جلدي يهتز اهتزازات خفيفة، ما لبثت أن أصبحت أقوى، نظرت إلى يدي كانت تتحول إلى يد أخرى، أصابني الفزع والرعب، لذا أسرعت إلى غرفتي لأنظر إلى مرآتي، وكانت صدمة مذهلة، في تلك المرآة كان وجهي قد تحول إلى وجه آخر، شخص لا أعرفه، لم يكن وجهًا ثابتًا، لكنه كان يهتز مثلما يهتز انعكاس وجهك على صفحه ماء، كانت ملامح ذلك الرجل تحمل صرخة مفزعة تتحول بعدةا من الألم إلى الذهول، حاولت أن أرفع يدي، أن ألمس وجهي ولكنني لم أستطع، فقد تحول فجأة جسمي إلى شجرة، تشبه تمامًا تلك الشجرة الملعونى، حاولت الصراخ والهرب، لكنني كنت عاجزًا، كنت مثبتًا في الأرض كجذع عملاق يضرب في أعماق التربة، لم يستغرق الأمر كثيرًا، فلقد شعرت أني أسقط من داخل تلك الشجرة إلى أعماق سحيقة، أعماق يملؤها الظلام، وتملأها الرعب، أخذت أسقط وأسقط، ومن تلك الشجرة خرج تابوت ضخم، أخذ يقترب ويقترب، ثم احتواني داخله، أخذت أصرخ وأصرخ حتى سقطت في غيبوبة عميقة، استيقظت في الصباح، وجدت والدي مستيقظين، كل شيء كان طبيعيًا، لم أخبر أحدًا

بما حدث، فقط شعرت أنني كنت في حلم سخيف، انطلقت إلى المدرسة ينهش قلبي كل الخيالات المرعبة، عندما وصلت إلى الشجرة، وجدت الكثير من الأشخاص مجتمعين عندها، كانوا يخرجون تابوتًا مدفونًا بجوار الشجرة، كان داخل التابوت شخص تجسدت على وجهه كل ملامح الألم، بمجرد أن رأيته جحظت عيناي فزعًا، فلقد عرفته على الفور، كان هو نفس الوجه الذي شعرت أني حلمت به، عرفت أنها جريمة قتل، وأن أحدهم قد دفنه حيا تحت تلك الشجرة، لقد كان يستنجد بي أن أنقذه، أصابني الندم والفزع، وقررت العودة إلى المنزل، فكانت مفاجأة مذهلة فهناك في قلب المنزل، في ذلك الموضع الذي سقطت فيه تلك التفاحة، كانت هناك شجرة مرعبة ذات أغصان فارغة تكبر، ومن داخلها صوت نبضات بشرية، تعلو، وتعلو، وتعلو.



القلب الخفي

«إن دور المهرج والطبيب متشابهان، إنه الارتقاء بالممكن
وتخفيف المعاناة»

باتش آدمز

ما سأذكره اليوم لن تقرأه في أي مرجع طبي، ولا علمي، حتى أنت عندما تقرأه الآن حاول أن تنساه، بل لابد، لن يذكره أحد لك أبدًا سواي، حتى وإن ذكره ستتهمه بالجنون حتمًا، ولولا أنني كنت جزءًا من أحداثه ما صدقت ذلك أبدًا.

أنا طبيب شاب، في مقتبل العمر، مرّ على تخرجي سنوات قليلة ولكنني اكتسبت فيها خبرة كبيرة، كنت أهوى الطب، والعلم، أهوى أمراض القلب والأوعية الدموية، وخدمة الآخرين، ومع حماسي وطاقتي قررت أن أذهب إلى مستشفى نائية، أخدم أهل قريتها المحرومين من الخدمات والاهتمام.

كانت ليلة شتاء باردة، أشعلت المدفأة كما أفعل كل مرة، لكن هذه المرة كانت مختلفة، كانت النيران باردة، أو هكذا

خيّل لي، بدلا من أن تبعث الدفء في جسدي، كانت تبعث القشعريرة في جسدي وعقلي، تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث، في الخارج تمطر، أصوات الرعد تصطك مسامعي، لا أدري كيف تكتشف الطبيعة أن شيئًا مرعبًا سيحدث، لما يضرب البرق ويزأر الرعد كلما خرجت الأمور عن المألوف، كأنها تحذرنا، أو تسخر منا.

لم أشغل بالي كثيرًا، حاولت التجاهل بقراءة كتاب، ففي هذه الليالي لا يوجد مرضى، لا أحد يجرؤ على الخروج من بيته.

فجأة، قطع الصمت صوت دقات سحيقة تأتي من الباب، كأنها تأتي من عالم بعيد، انتفضت، لكنني ابتسمت وسخرت من سذاجتي، لعله مريض يبعد ملل هذه الليلة الطويلة، هذا ما قلته لنفسي.

استجمعت شجاعتي وذهبت لأفتح الباب، فعلًا صدق ظني، كان هناك شخص بالباب، كانت ملامحه غير واضحة على الباب، لكنه كان طويلًا ونحيلاً بشكل ملحوظ، حياني بصوت عميق كأنه آتٍ من داخل قبر، ومد يده بالسلام، مددت يدي ولم أكد ألمسه حتى سحبت يدي بعنف، كانت يداه ببرودة الثلج نفسه، بل هي الثلج ذاته، لم يبد عليه الاهتمام، ولكنني طمئنت نفسي وعزيت برودتها للشتاء والطقس بالخارج، خطى بخطوات بطيئة وثقيلة للداخل، الآن أراه، شاحب الوجه كان

الدم كله قد فرّ منه، عيونه مائلة للاحمرار، وشفتاه بلون الموت الأزرق، لابد أن لديه مرضًا ما بالقلب والأوعية الدموية، هذا ما طمأنت به نفسي مؤقتًا، دعوته للجلوس على الكرسي المجاور للمدفأة، لم يكد يعبر بجوار المدفأة حتى حدث شيء غريب أثار الرعب أكثر في قلبي، تأججت النار بشكل مخيف، ومع ذلك زادت برودتها وقسوتها، ابتلعت ريقي وسألته عمّا به، أجابني بأنه لا يشعر بأنه على ما يُرام، بل إنه لا يشعر الآن إطلاقًا، تجاوزت عبارته الأخيرة بشيء من السهولة كأنها دعابة، ودعوته للفحص على السرير الطبي، أخذت أسأله أسئلة عديدة عن حالته ومتى بدأت وهل كانت المرة الأولى أم تكررت، وكان الجواب لا أذكر، حاولت أن أطمئن نفسي بأن أبدأ في فحصه متجاوزًا عن إجابته الغريبة، امتدت يدي ببطء لقياس نبضه، ونظرت إلى ساعتي، نزل العرق البارد على جبيني، عقرب ساعتي يرتعش، نعم، أنا لا أحلم أو أتوهم، إنه ينتقل من ثانية إلى أخرى وهو مذعور يرتعش، والأغرب أن ذلك الشخص كانت نبضاته واضحة ولكن غير منتظمة، نبضات عادية، ونبضات أطول من أخرى وفترات صمت متغيرة، هذا ليس اللغط الذي نعرفه جميعًا كأطباء قلب، ذلك النبض أشبه بلحن لا يتكرر، كنت متأكدًا أني سمعت مثله من قبل ولكن أين، لا أتذكر، قررت أن أضع السماعة على قلبه مباشرة، لأستمع

للأصوات الصادرة عن صمامات قلبه، ذهلت، لم أسمع شيئًا قط، مستحيل، صمت أشبه بصمت القبور في ظلمة موحشة، رفعت السماعة بحركة عنيفة، أعدتها مرة أخرى، صمت تام، قررت أن أضعها على صدري لأتأكد منها، نعم أصواتي القلبية واضحة تمامًا، ماذا يحدث، تطلعت إليه بخوف وحذر وغيرت موضع السماعة قليلًا لأسمع صوت صمامه الأذيني، لا شيء أيضًا، تجمدت مشاعري وأنا أنظر إليه، كانت نظرته خاوية وباردة، كنت مذعورًا إلى الحد الذي جعلني أنتفض حين ارتفعت طرقات الباب مرة أخرى، هرعت إلى الباب لأجد غفير المركز يطلب مني أن أذهب معه لأرى سليمان قريبه فهو مريض جدًّا وعلى فراش الموت، التفت ورائي ليحدث أغرب شيء من الممكن أن يحدث، اختفى الزائر الغريب تمامًا، وعاد كل شيء إلى طبيعته، أخذت أبحث كالمجنون والغفير يتابعني بنظراته، حتى اتهمت نفسي بالخيال الواسع والوهم الكبير، قررت الذهاب مع الغفير إلى بيت سليمان، لم أكد أدخل حتى تراجعت للخلف في حركة حادة، كان سليمان مستلقيًا فوق سريره وقد فارق الروح وحوله أقاربه يبكون وينوحون، لم يكن ذلك ما أرعبني ولكن لأن ذلك النائم على السرير والمتوفي منذ ربع ساعة تقريبًا كان نفس الشخص الذي زارني منذ ربع ساعة مضت، كان عندي في نفس وقت موته تقريبًا، استجمعت بقايا

شجاعتي المتناثرة، فحصته لأتاكد من موته، لقد مات بالفعل، ولكن لأكن أكثر دقة لقد قتل، علامات التسمم واضحة، كان السم المستخدم من النوع النادر والقوي، والذي قلما يوجد في تلك البقاع النائية، ولم أكن أستطيع أن أدرك ذلك سوى لأنني كنت متفوقًا في علم السموم أثناء دراستي، كانت تلك جريمة ينبغي الإبلاغ عنها، حبست الكلمات في صدري فلست أعرف من الفاعل منهم، وأخبرتهم بضرورة نقله لمشفى ليحددوا سبب وفاته، أخذت العيون تتناقل فيما بينها وارتفعت همهات صاخبة حولي، لكن ما كان يشغل ذهني هو ما حدث من سليمان معي، لماذا زارني، وما سر نبضات قلبه، فجأة التمع الحل في ذهني، يا إلهي الآن تذكرت أين سمعت ذلك اللحن الذي كان يعزفه نبض قلبه، أخذت عيناي تتسع واللحن يملأ عقلي وبكل قوة يتردد ويتردد ويتردد.



المعمل

«الشرط الوحيد للتقدم الروحي
هو أننا نبقى مخلصين ومتواضعين“

جون كالفين

ماذا تفعل إذا تحولت مهنتك إلى مصدر رعب، إذا أصبح شغفك كوابيس مخيفة تملأ حياتك ارتياعًا وخوفًا، ماذا تفعل إذا أصبحت أنابيب الاختبار عدوك الأول، ولقطات الميكرسكوب المكبرة وحوشًا مرعبة.

البداية كانت شغفي ومهنتي، فلقد تخصصت بالتحاليل الطبية، أحببت تفاعلات أنابيب الاختبار، أجهزة الميكرسكوب والتكبير، أحببت شرائح الخلايا وأشكالها، أجهزة الطرد المركزي ووسائل كشف الكائنات الدقيقة وغيرها.

كان شغفي يدفعني للعمل بأوقات متأخرة من الليل، أكون بها وحدي، أغلق معملي وأستمتع بالعينات والتحاليل المطلوب مني إنهاؤها.

كانت ليلة مظلمة، السماء تكتنفها سحب سوداء تنذر بالمطر، والقمر مختبيء خلفها كأنه يخشى من سوء الطقس، وأيضًا سوء الحظ.

أمسكت بعينة كانت قد أتت نهارًا، وضعتها تحت الميكروسكوب، حاولت أن أنظر إليها عبرة، فجأة انقطع التيار الكهربي، كان من المألوف في ذلك الطقس أن ينقطع التيار الكهربي، لكنني أحسست بشيء غريب يقبض صدري وروحي، قمت أشعل شمعة كما اعتدت في مثل تلك الظروف، بمجرد أن قمت، عاد ثانية التيار الكهربي، عدت للنظر مجددًا في الميكرسكوب، الخلايا تظهر دقيقة بتكويناتها الحية المعروفة، كنت أبحث عن أي تكوين غير مألوف لأكتب تقريري عنه، حتى حدث شيء غريب، كانت الشريحة تحتوي قطرات من الدماء، نعم، لم تكون حتى قطرات مكبرة، كانت قطرات عادية بنفس الحجم الطبيعي، تراجعت للخلف ظنا أن شريحة الاختبار ملوثة، لكن ما حدث كان الأغرب، لا أثر لتلك الدماء بالعين المجردة، هذا غريب، حاولت النظر بالميكرسكوب مرة أخرى، كانت القطرات واضحة، لدرجة خيّل إلي أن الشريحة تنزف، نعم، تنزف مثل أي كائن حي، تراجعت مرة أخرى، أكسكت الشريحة بيدي، أخذت أديرها محاولًا الوصول لتلك الدماء التي أراها ولكن لا أثر، أخذت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا

مفكرًا فيما يحدث، ماذا أفعل، قررت أن أضعها مرة أخرى تحت الميكرسكوب وأنظر.

هذه المرة حدث شيئًا جعل كل شعيرات جسدي، ترتجف، حدث ما طاردني حتى اليوم في كوابيسي وأحلامي بل حتى في يقظتي.

كانت الخلايا الدقيقة قد اختفت تمامًا، وحل مكانها ما يشبه الوجه المرسوم بخطوط باهتة تستطيع تمييزها ولكن لا تستطيع تحديدها، كان ذلك الوجه يحمل عينين متسعتين وتمتلىء نظرته بالرعب وبالعذاب وبالآلم، وكانت كفاه تمس وجنتيه كمن يصرخ طلبا للنجدة والفرار، كانت ملامحة تمتليء بالعذاب للدرجة التي في اللحظة الذي يعتصر فيها قلبك الخوف، يصيبك التعاطف على مصيره، كان كمن يستنجد بي أن أنقذه، تراجعت كان أحدهم قد أصابني بلكمة عنيفة في عيني، حاولت الوقوف لكن الأرض قد دارت بي فسقطت مرة ثانية على مقعدي.

حاولت التقاط أنفاسي، قمت لإحضار كوب من الماء أتمالك به أعصابي، امتدت يدي تملأ الكوب بالماء، حدقت بذهول في الماء، فلقد كان الماء ممتليء بوجوه صغيرة كثيرة تشبه ذلك الوجه الذي رأيته، أصابني الرعب والفزع، هممت بالفرار والتوجه إلى الباب، في اللحظة التي هممت بها أن أفتح

الباب، انقطع التيار الكهربي مرة أخرى، ثم حدث ما جعلني أسقط مغشيًا على وجهي في أرض الغرفة.

كانت الغرفة شديدة الظلام، ولم أكن أستطيع تبين أي شيء سوى جهاز الطرد المركزي، كان التيار الكهربي منقطعًا لكن جهاز الطرد المركزي كان يعمل، كان الوجه يرتسم بنفس ملامحه داخلة عن طريق دخان أبيض مضيء، نفس الصرخة والرعب وطلب النجدة، والأغرب أن الوجه قد بدأ في الدوران ومع الدوران تتشكل جمجمة ثم مع ازدياد الدوران تتشكل عضلاته وشرايينه وأوردته بلا جلد ومع ازدياد الدوران تشكل وجهه أخيرًا، وكانت المفاجأة، هذا الوجه ليس غريبًا، لقد مر بي من قبل، إني أعرفه، لكنني لا أستطيع تذكره، أفقت من أفكاري عندما عاد التيار الكهربي مرة أخرى واختفى الوجه وعاد كل شيء إلى طبيعته، جلست لاهثًا وأنا أقرر قرارا لا أدري هل هو صواب، أم أنني ألقي بنفسي إلى قلب الرعب والخوف والغضب.

قررت أن أبحث فيما يحدث داخل معملي، لذا أمسك بالشريحة مرة أخرى وراجعت أرقامها ثم قمت إلى سجل المعمل لأبحث عن صاحبها، كانت للسيد عمر أكرم الذي يقطن قريبًا من معملي، لذا دونت رقم الهاتف والعنوان وقررت أن أذهب باكرًا إلى منزله، في الصباح كان الجو مشمسًا ودافئا عكس الليلة السابقة، أخذت في الاتصال برقم هاتفه لكن لا

أحد يجيب، لذا ارتديت ملابسي وذهبت إلى العنوان، كان الشارع الذي يقطن فيه ضيقًا وكئيبًا، خاليا من المارة، وصلت إلى المنزل، منزل قديم تشعر من شدة قدمه أنه مريض ومتهالك يوشك على الموت، طرقت الباب ففتح لي شاب صغير، لم أكد أراه حتى تذكرت أين رأيت ذلك الوجه، كان يشبه كثيرًا الوجه الذي ظهر لي بالأمس ولكنه لم يكن هو، تذكرت أنه هو الذي أحضر العينة وأخبرني أنها لأخيه، عرفني بمجرد أن رآني، حياني ودعاني للجلوس، وعندما خطوت للداخل حدث ما جعلني أرتجف، كانت الغرفة بسيطة وأثاثها متواضع، ولكن في منتصف الحائط المقابل كانت تقع صورة كبيرة، كانت صورة لذلك الوجه المخيف الذي رأيته بالأمس، وبجاورها صورة لي أنا شخصيًا، كنت مذهولا أشد الذهول، فعلى الجانب الأيمن العلوي لإطار الصورة التي تحمل صورتي، كان هناك شريط أحمر مائل كالذي يوضع ليوحي أن صاحب الصورة قد توفي، كان ذلك الشريط يتحرك كنهر من دم لا يكف عن الجريان، بأصابع مرتجفة أشرت للشاب على الحائط المقابل، أخبرني بكل حزن أنها صورة أخيه وأنه بالأمس قد شنق نفسه، وأن العزاء في المسجد القريب من منزله، ارتعبت وأنا أنقل أصابعي قليلًا لليمين وأخبره، من هذا الذي بجواره، أخذ الشاب يتلفت متعجبًا وهو يخبرني أن لا يوجد صورة سوى صورة

أخيه، كنت مرتعبًا أشد الرعب، ذهبت إلى الحائط وتحسسته، كانت الصورة بارزة، ولكن موضع أصابعي لم يكن هناك شيء حقيقي، هممت بالانصراف، ولكن جال بذهني خاطر، فالتفتت إلى الشاب الصغير وسألته، لماذا شنق أخوك نفسه، أخبرني أنه منذ سنه تقريبًا، قد اكتشف أن لديه مرضًا لا شفاء منه، وأنه منذ ذلك الوقت أخذت حالته النفسيه تتدهور، حتى شنق نفسه، وقعت الكلمات كالصاعقة على رأسي، لقد تذكرت الآن، أخذت أهرول عائدًا إلى معملي، قلبت دفاتري القديمة منذ سنه تقريبًا، أخذت أبحث حتى وجدت الاسم، نعم هو عينه، الآن تذكرت، لقد كنت أنا من قام بمعاينة عينته منذ سنة، كنت قد ارتكبت خطأ لم أدركه سوى بمرور الوقت، كانت العينة سلبية لكنني أخطأت وجعلتها إيجابية، أنا من فعل ذلك، اكتشفت ذلك ولكن اعتزازي بنفسي منعني من إصلاح ذلك الخطأ، أو الاعتراف به، تهالكت جالسًا على الكرسي المقابل لمعملي، ومن بين تلك الشريحة اللعينة، أخذ ضبابا خفيفا ينبعث منها، ثم ما لابث أن تبعتها كل الشرائح في معملي، أخذ ذلك الدخان يتشكل على شكل مشنقة تقترب مني، حاولت القيام، والهروب، إلا أن قدمي قد شلت تمامًا، أغمضت عيني وتراخى جسدي، والمشنقة تبتسم بسخرية، وبكل هدوء تقترب وتقترب وتقترب.



الثمن

« المرء الذي يشتهي الانتقام
ينبغي عليه أن يحفر قبرين»

غير معروف

هل تؤمن بالكارما؟ بتلك المقولة التي تقول بأن من يزرع شرًا يحصد أيضًا شرًا؟ هل يترقبك القدر ليأخذ منك عنوة ما أخذته أنت أيضًا جورًا وظلمًا؟

أنا موظف حكومي، في العقد الرابع من العمر، أرمل، ليس لدي أبناء، قضيت جل عمري بين أروقة المصالح الحكومية العتيقة، اغرق في الاستمارات، في الطلبات وفي الدمغات، كان ختم النسر هو قدوتي وقوانين العمل هل كل حياتي، كنت موظفًا مثاليا، تدق الساعة على موعد وصولي، وتقيس الساعة على موعد انصرافي.

كنت لا أقبل سوى ما يوافق لوائح المصلحة، لا أقبل الواسطة، ولا المحسوبية، لم أذق يومًا طعم قرشًا ليس لي، ولا تمنيت يومًا أن أكسب مالا ليس بجهدي، حتى حدث ما حدث لي.

كان صباحًا عاديا، الشمس لم تتكاسل فيه عن الاستيقاظ، الطرقات بزحمتها المعتادة، الناس تتحرك كما تعودت، وصلت مكتبي في الوقت المثالي، استرخيت، طلبت قهوتي وبدأت في عملي، كانت وظيفتي هي مراقبة المشروعات، أن أراجع المتطلبات وأتأكد أنها مطابقة للمواصفات، بحلول الظهيرة، حدث ما غير حياتي كلها، كان موعدا لصاحب مشروع قد قدم أوراقه قبلًا، كنت قد راجعت أوراقه ووجدتها غير مناسبة، قررت أن أرفضها، وأن أمهله فرصة حتى يتم تعديلها، طلب مقابلتي فوافقت، وكانت غلطة لم أجد وقتاً كافيًا للندم عليها أبدًا.

طرق الباب فأذنت له بالدخول، لم أكد أراه حتى انتابتني قشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي لك أن شيئًا ليس على ما يُرام سوف يحدث، كان الزائر يرتدي بدلة شديدة السواد، كان تكوينه رياضيا، ملامحه شديدة الوسامة، بشرته بيضاء بلون لم أشهده من قبل، كأنها شفافة مصنوعة من البلور الصافي، حتى لتشعر أنك تستطيع من خلالها أن ترى ما بداخله من أجهزة وعضلات، كانت عيناه عجيبتين، تحملان بؤبؤ يتأرجح بهدوء

كرة صغيرة تتأرجح على سطح ماء، امتديت يده لتصافحني فحدث شيء غريب رهيب مذهل، لم تكد يداه تلمس يداي حتى انطلقت صرخة ألم مذهلة في عقلي، صرخت حملت صورًا لكل ذكريات شجاري مع زوجتي السابقة، كل الخلافات طفت لسطح عقلي في لحظه واحدة، سحبت يدي سريعًا، لكن حدث أمر مذهل، كان لايزال واقفًا بعيدًا عند الباب وليس في وضع يسمح أن أصافحه، هل كنت أتوهم؟ كيف ذلك؟ وهل صافحته أم لم أصافحه حقا؟ كانت الأفكار كثيرة كالسيل العارم تتدافع في رأسي، ولكني أشرت له بالجلوس، كان ثمة شيء عجيب بخصوصه، عندما جلس، هبت رياح ساخنة لفحت وجهي وجسدي، شعرت بالنيران تلتهم روحي وعقلي، لكن الغريب أن كل شيء حولي كان صامتًا، هادئًا، ساكنًا، كنت أود أن أخبره أن أوراقه قد رفضت، وأنه ينبغي عليه تعديلها، لكنني كنت صامتًا كالقبر، مرتعدا كجرو مبلل، امتدت يده برزمة أوراق نقدية، وضعها بهدوء على المكتب أمامي، امتدت يدي رغمًا عني لتلتقط الأوراق النقدية، كنت أبذل جهدًا هائلًا لأمنع يدي من الحركة ومخالفة كل ما أؤمن به، لكن قوة خفية كانت تحرك يدي وتسلب معها إراداتي، أخذت النقود وقمت بالتأشير على أوراقه بالموافقة، الْتمعتْ على طرف شفتيه ابتسامة، وجاء

صوته من أعماق سحيقة وهو يشكرني بكلمات جافّة صلبة، سقطت على أذني كحجارة حادة ثقيلة.

عُدت إلى المنزل وأنا أشعر أن حياتي قد تغيرت تمامًا، كنت أشعر أن يدي ثقيلة أجرّها جرًّا، صعدت مُنهكًا إلى المنزل، ارتميت على السرير دون أن أغير ملابسي، كانت أنفاسي ضيقة ومشاعري مضطربة، كنت لازلت أفكر بما حدث، وبالجريمة التي أصبحت تسمّم مشاعري وكياني، أخذت أرتجف في سريري لفترة طويلة حتى غلبني النوم.

استيقظت في الصباح منهكًا، مشعثًا، مخلوب اللبّ والجنان، فتحت عيناي بصعوبة، أخذت أنظر حولي ببطء محاولًا أن أستعيد ما حدث، كانت الشمس ساطعة، تخترق نافذتي فتضيء الغرفة بضوء الصباح المنعش، كانت يدي اليمنى ساقطة بجواري، كجسد ميت لا أستطيع التحكم بها، قمت من السرير ببطء، ناوٍ أن أذهب لأغسل وجهي وأبلل شعري، بمجرد أن وقفت انتصبت كل بصيلات شعري، كان ما حدث مُخيفًا وغريبًا، لم أكن أستطيع أن أتبين تفاصيله إلا عندما وقفت، على المرآة المقابلة لسريري كانت هناك كلمتان مكتوبتان بلون أحمر قاني كالدم، سارق، مرتشٍ، كانت الكلمتان مكتوبتين بطريقة كأنهما مرسومتان، كأنهما تصرخان بأعلى صوت تمتلكانه، كنت مرتعبًا بشدة، كنت أتساءل مَن ذلك

الشخص الذي سوّلت له نفسه أن يقتحم غرفتي ويكتب تلك الكلمات، ولماذا؟ هل رأى ما فعلت حقًّا؟ كنت أرتجف من شدة الخوف والغضب وقررت أن أمسح تلك العبارات، مددت يدي اليمنى ولكنها لم تستجب، كانت هامدة ميتة لا تطيع أي أمر من أوامري، مددت يدي اليسرى وبارتجافة تتملكني أخذت أمسح الكلمتين المرعبتين، انتهيت من محوهما وأنا منهك تمامًا، حاولت استعادة قواي للذهاب إلى العمل، أنهيت روتيني اليومي بشيء من اللامبالة، كان عقلي ملتهبًا من كثرة التفكير، صور ذالك الشخص، ذكريات مصافحته لي، يدي التي امتدت بلا إرادة لتقبل رشوته، الكلمتان المرسومتان على مرآة حجرتي، كلها اجتمعت كسكاكين حادة تتناوب على الإجهاز على عقلي، ذهبت للعمل بلبّ مسلوب ويد تأبى أن تطيعني، كانت تعليقات الزملاء وآراؤهم أن أذهب للطبيب لمعاينة ذراعي، لم يكن عدم حركة يدي اليمنى يقلقني بقدر ما كان يشغلني أن أعرف من ذلك الوغد الذي اقتحم غرفتي، من ذلك الذي يدرك ما حدث وما فعلت، عُدت من العمل وفكرة رهيبة تمتلك كياني، سأكشف ذلك الوغد، وسألقّنه درسًا لم ينلْ في حياته مثله أبدًا، كنت أعلم أنه بكل ذلك الغضب، والمرارة سوف أرتكب جريمة لا محالة، أخذت أرتب أفكاري، أعتصر عقلي لأحقق هدفي ومقصدي، ولما كان من الصعب

أن أطلب تركيب نظام للمراقبة، فإن ذلك قد يستغرق وقتًا، فقد قررت أن أستخدم حاسوبي لمراقبة غرفتي، سأركز كاميراته على المرآة وأستخدمه لتسجيل الأحداث طوال الليل، وعند الصباح سأكتشف ما حدث، كنت قد قررت ألا أغلق نافذتي بالمزلاج حتى أُغري المقتحم أن يدخل مرة أخرى، مرّ النهار كدرب سحيق لا أجد نهاية له أبدًا، وعند المساء شرعت في خطتي، اختبرت الأمر عدة مرات حتى تأكدت أن الأمر ناجح تمامًا، ذهبت للنوم وأنا أبذل جهدًا جبارًا للسيطرة على أفكاري، حاولت النوم ولكنني كمن سقط في فجوة تتسع كلما حاول الفكاك منها، عند اقتراب الفجر استجاب جسدي أخيرًا لمحاولات النوم، وسقط في غفوة خفيفة مذبذبة، استيقظت بعد انبلاج الفجر، كانت يدي لازالت تعصي أمري، فتحت عينيّ بصعوبة، قمت مترنّحًا وأنا أعدّ نفسي لأي مفاجأة متوقعة، لم تكد عيناي تقع على المرآة حتى انتفضت مرة ثانية، كانت الكلمتان المستقرتان فوق المرآة حجمهما أكبر هذه المرة، وتصرخان بشكل أعلى من أول مرة، على الرغم من استعدادي، إلا أن كياني قد اهتز أيضًا هذه المرة، كانت كل خلية من خلايا جسدي تتصارع مع نفسها وتتصارع في نفس الوقت مع الخلية التي تجاورها، كانت القشعريرة تجتاحني بشكل لم أعهده من قبل في نفسي، سقطت على أقرب كرسي، وأنا ألهث ككلب

حاصرته الصحراء الممتدة من كل جانب، أخذت تلك الارتجافة والقشعريرة وقتًا طويلًا حتى أستطعت أخيرًا أن أتمالك نفسي، اتجهت بلهفة للحاسوب فكانت المفاجأة، لقد أطاح أحدهم به فسقط أرضًا بعيدًا عن مكانه، لابد أن من اقتحم الغرفة قد انتبه لما فعلته، كنت أشعر بالغضب وباليأس وبالإحباط، لقد فوتت فرصة الإمساك بذلك المقتحم، فوت فرصة الوصول لسر تلك الكلمات الرهيبة، املتئت نفسي بالحنق وبالخوف، ولكنني أمسك بحاسوبي، أخذت أعيد ما قد سجله علّني أرى شيئًا يلهمني بكشف المقتحم، أخذت بلهفة أعيد ما قد سجله حتى اللحظة التي تم فيها الإطاحة به أرضًا، انتبهت حواسي كلها، ففي الثانية السابقة للإطاحة بالحاسوب، كان هناك لقطة سريعة ليد تتحرك بسرعة فائقة تطيح به، أوقفت اللقطة وأخذت أدقق، هذه اليد أعرفها، لقد رأيتها سابقًا، كانت الرؤية ضبابية لكنني شعرت بالألفة لها، هل هي يد ذلك الشخص المخيف الذي قام برشوتي، هل هي يد أحد العاملين معي، ولكن لما يفعل ذلك؟ هل رأى ذلك الشخص الغريب وهو يعطيني النقود؟ هل يرغب في الانتقام مني، لم أستطع الوصول إلى قرار بشأن تلك اليد ولكن كل ما امتلك فكري أن حياتي قد أصبحت مستباحة ومهددة، أن من اقتحم منزلي ليلتين متتاليتين يستطع أن يفعل ذلك في أي وقت وفي أي مكان، ملأني ذلك

الخاطر بفزع عجيب، ومعه تخليت عن فكرة الكشف عن ذلك المقتحم، سأهرب، سأختبئ، سأتوجه إلى فندق أقضي فيه يومًا أو يومين حتى أدبر أمري، جمعت حاجيات قليلة على عجلة، وتوجهت إلى أقرب فندق من منزلي، كانت يدي اليمنى المشلولة تثير في نفسي الحنق فقررت أن أرتاح لليلة ثم أذهب للطبيب كي أعاينها وأرى ما بها، كنت آمل أن أحصل على قسط من النوم يعينني على التفكير السليم واتخاذ قرارت مناسبة لما أمر به، أنهيت إجراءاتي وتوجهت إلى الغرفة، لم أكد أصل حتى سقطت في نوم عميق من فرط التعب و الارهاق، كان نوما عميقا حتى زارني ذلك الكابوس المخيف، حلمت بأني في صحراء قانية بلون الدم، وعقرب أسود ضخم مخيف في حجم بشري كامل يملك وجها مألوفًا يمد يده له بحفنة من النقود، كان ذلك الوجه هو وجه الزائر الغامض الذي ابتئدت معه مأساتي ومعاناتي، كان يبتسم ابتسامة مرعبة وعجيبة، كانت النقود حادة ملتهبة تدبّ فيها الحياة، لم أكد ألمسها حتى أخذت تتصاعد فوق جسدي حتى وصلت إلى عنقي وأخذت تلتهمه بنهم وبلا هوادة، أخذت أصرخ وأصرخ حتى استيقظت فزعًا، استيقظت وجسدي كله يأبى أن يتحرك، أصابني شلل تام في كامل جسدي، فتحت عيني فإذا بي أبصر شيئًا رهيبًا، على الجدار المقابل لسريري كانت هناك نفس الكلمتين

اللعينتين، سارق، مرتشٍ، كانت بنفس الرسم وبنفس الصرخة، كانت تزحفان على عنقي وتلتهمانه مثلما فعلت نفس النقود في كابوسي، جحظت عيناي وأخذت أصرخ وأصرخ وأصرخ حتى اقتحم العاملون بالفندق غرفتي، تم نقلي على وجه السرعة لأقرب مشفى من فندقي، كان جسدي مشلولًا بالكامل إلا وجهي ولساني، أخذت أتلعثم بالكلام عن زائر ورشوة وكلمات مرعبة ونقود، لم يفهم الأطباء شيئًا وحاولوا طمأنتي وتهدئتي، أخذ عقلي يكتنفه الضباب ولساني يثقل بالتدريج، وصل مسامعي كلمات أنه ينبغي أن أتلقى مهدئًا وقناعًا للأكسجين حتى ينتظم تنفسي، قام الأطباء بحقني ووضع قناعًا لتنتظم أنفاسي داخل صدري، أحسست بالطمأنينة وبالأمان، وفي المساء جاء الأطباء للاطمئنان على حالتي، كنت أسمع منهم عبارات الطمأنينة وأنني سأصبح بخير في القريب العاجل، حاولت أن أرسم ابتسامة على وجهي وانصرف الأطباء فأغمضت عيني، لم أدرِ كم من الوقت لبثت ولكنني حين فتحت عيني حدث أمر رهيب جعلت الكلمات تقف في حلقي، على الجدار المقابل كانت الكلمتان الرهيبتان موجودتين بنفس البشاعة وبنفس الرعب، لم يكن ذلك ما أرعبني وجعل الكلمات تقف في حلقي، فعلى مرمي بصري، كانت يدي اليمنى المشلولة تتحرك كأنها دودة عملاقة تزحف فوق جسدي، كانت تزحف وتمس جسدي

ووجهي كعنكبوت يتحسس فريسته العاجزة، كنت أرغب أن أصرخ وأصرخ لكن لساني عجز على أن يستقبل أمري، أخذت اليد اللعينة تتحسس جسدي ببطء مميت حتى وصلت إلى صمام القناع الذي أرتديه، أخذت اليد تغلق الصمام الذي يمد جسدي بالحياة وأنا أشعر أنها تبتسم في تشفٍّ، أخذت أنفاسي في الانحسار وأنا أشعر بروحي تنسحب عبر جسدي، اجتاحت الغيوم الكثيفة عقلي ومن بين الغيوم التي تراكمت على عيوني، رأيته، كان بنفس وسامته وشرّه، بنفس أناقته وغرابة مظهره، كان ذلك الزائر الغامض الذي تسبب في كل ذلك، الذي اجتاح حياتي بشره وبسمومه واقفًا أمام سريري يرى كل ذلك ويبتسم، بمرور اللحظات كانت ابتسامته تتسع، وأنفاسي الضيقة، تنحسر وتنحسر وتنحسر.



الحلم

«الحلم الذي تحلمه وحدك ما هو إلا حلم،
والحلم الذي نحلمه معًا هو حقيقة واقعة»

جون لينون

هل سبق لك أن حلمت؟ لا أعني ذلك الوقت الذي تتمني فيه بأن تحفق شيئًا تطمح بإنجازه، لكنني أعني حلمًا حقيقيًا، ذلك الحلم الذي تنغمس فيه بكل جوارحك، بكل كيانك ونفسك، الحلم الذي يأخذك لأرض لم تطأها قدم قط، وسماء لم تشهد قبلك أحدًا أبدًا، ماذا يحدث إذا تحول ذلك الحلم إلى كابوس؟ كابوس مرعب يزحف ناحيتك، ينتظر الفرصة ليبتلعك وينهي أمرك؟

أنا شاب قد تجاوزت الثلاثين من العمر، أملك أسرة مكونة من طفلين، زوجة محبة وحياة هانئة سعيدة، كانت حياتي هانئة أعبر بها من مرحلة إلى مرحلة أخرى بهدوء مركب ورقي يلهو به طفل في حوض منزله، الأيام تجري بسلاسة ويسر، حتى حدث ما جعل كل شيء ينقلب رأسًا على عقب.

كانت ظروف العمل قد أجبرتني على ترك زوجتي وأولادي والانتقال لمدينة أخرى، كنت أبحث عن منزل يقع قريبًا من مكان عملي، أخذت أبحث وأبحث حتى كلّ مني التعب، بحثت في المكاتب والإعلانات، سألت الزملاء لكن كل ذلك ضاع هباء، كنت كل يوم أشتري الجرائد، أقلب صفحات الإعلانات، أبحث عن كل شبر فيها بل كلل ولا ملل، كنت أجد منازل في أحياء أخرى، ولكني لم أجد أبدًا منزلًا في الحي الذي أرغب به، حتى كان عصر ذلك اليوم العجيب، كانت الشمس متعبة، تنزف خيوطًا من الضوء الأحمر الشاحب، كان السحب السوداء و أصوات الناس و صخب الحياة قد اجتمعوا ليثخنوها طعنا و جراحا، نوافذ الغرفة القديمة تئن تحت وطأة تلك الخيوط المرتعشة، الظلال الساقطة داخل الغرفة كأنها عدة أشخاص يجلسون ويتسامرون ويشاركونك نفس الغرفة، كنت أجلس في غرفة ذلك المنزل الذي استأجرت غرفة فيه، أشعر بالإحباط من فشلي في العثور على منزل أسكن به، دفعني الملل أن التقطت جريدة اليوم السابق، أخذت عيوني تجري بلا اهتمام على الصفحات وفقرات الإعلانات، كان كل شيء هادئًا حتى حدث ما جعل قلبي يسقط هاربًا إلى أعماق قدمي، هناك، في الركن العلوي الأيمن من صفحة الجريدة التي قلبتها قبلًا رأسًا على عقب، كان هناك إعلان عن منزل يبحث صاحبه

عمن يسكنه، كان الإعلان منزويًا كطفل خائف مرتعب قد تكوّر في ركن هربًا من الظلام ومن الخوف، كنت متأكدًا أنني قد راجعت تلك الصفحة عدة مرات قبلًا، كنت متأكدًا أني لم أر ذلك الإعلان أبدًا، ارتجف قلبي رجفة خفيفة، وبأصابع مرتعشة أخذت أتحسس سطور الإعلان كأني أتأكد من وجوده، كنت أشعر بنبض الكلمات تحت أصابعي، لم أكن أدرك أن تلك نبضات الكلمات حقًا أم نبضات قلبي المرتعشة، أخذت أغلق الجريدة وأفتحها عدة مرات كي أتأكد أني لست واهمًا أو أحلم، كان الإعلان مستقرًا في نفس المكان بنفس الكلمات والتفاصيل، نفضت تلك الأفكار من رأسي وأحضرت ورقة صغيرة نقلت فيها أرقام صاحب المنزل وأنا ناوٍ أن أزوره في الغد بعدما أنتهي من ساعات عملي.

في اليوم التالي عند الساعة السادسة مساء قمت بالاتصال بصاحب المنزل الذي رحّب بمقابلتي، بعد ساعة كنت في طريقي إلى ذلك المنزل، كانت الأفكار المضطربة تموج في صدري وتشغل تفكيري كالسحب السوداء المليئة بالمطر وبالغضب، وصلت إلى حافة الشارع الذي يقع فيه المنزل، كان الشارع طويلًا كمتاهة لا نهاية لها، على جانبيه منازل قديمة تشعر أنها لاتزال موجودة فقط لأنها تخجل أن تسقط وتنهار، كنت تشعر بمعاناتها على كل جدار، في كل نافذة، على

ألوان حوائطها، كانت أنوار الشارع بيضاء مرتعشة كعجوز قد امتلأ رأسه بالشيب، وبالرعب، ابتلعت ريقي الجاف وتناقلت خطواتي المترددة حتى وصلت بعد عناء لذلك المنزل، لم يكد يقع بصري عليه حتى انتابتني القشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي أن شيئًا ليس على ما يرام سوف يحدث، كان المنزل يستقر في ركن منفرد بعيدًا عن باقي المنازل، أنوار الشارع المرتعشة تصل بالكاد إلى أطرافه كأنها تخشى أن تمسّه أو تخشى أن يعرف أنها موجودة فينتقم منها، كانت أبوابه عالية، شامخة، قديمة، مبتسمة كحيوان جريح تلتمع أنيابه منتظرًا بحذر فريسته، لم أستطع أن أمنع نفسي من الارتجاف، ولكنني أجبرت شجاعتي على أن تلملم من بقايها، اقتربت من المنزل ببطء، امتدت يدي أطرق ذلك الباب القديم بدقات حاولت قدر الإمكان أن تكون قوية، كنت مرتعبًا مما حدث، كانت الطرقات قوية وواضحة، ولكن الغريب أن هناك فرقًا كبيرًا بين ملامسة يدي لذلك الباب، وسماع تلك الدقات، كان الصوت نفسه يخشى شيئًا غامضًا داخل ذلك المنزل، يخشى أن يظهر فينتقم منه ذلك المنزل العجيب، مرت ثوان كالدهر، ثم فتح صاحب المنزل ذلك الباب.

كان صاحب المنزل رجلًا قصيرًا، ممتلئًا، قد غادر الشعر رأسه في رحلة بلا عودة، يملك عينين ضيقتين، وابتسامة طوال الوقت كأنها مرسومة فوق وجهه رسمًا، كان صوته رفيعًا، يملك رنة تشبه تلك التي تصدرها الأفاعي وقتما تتحرك نحو فريستها، كان كل شيء غريبًا، مريبًا، مرعبًا، كل شيء يدعوني للتقهقر، للعودة، ولكن كان هناك شيء يدفعني دفعًا للاستمرار، ذلك الشيء الذي يدفع الفريسة للفخ دون أن تتردد، أو تشعر أنها تساق إلى حتفها سوقًا، اتفقنا سريعًا ونقدته أجرة المنزل، قررت أن أعود بحاجياتي في الصباح لأستقر أخيرًا في ذلك المنزل.

في اليوم التالي نقلت حاجياتي للمنزل قبل الذهاب إلى العمل، ثم ذهبت إلى العمل، وعند العودة حصل شيء غريب، في الطريق كان هناك شخص مسكين، من أولئك الأشخاص الذين يطلبون فضلًا من السائرين والمارين بهم، كان يرتدي أثمالًا بالية، منحني الظهر كمن يحمل من الهموم جبلًا، كان وجهه مطرقًا للأرض لا يرفعه، كان من ثِقل همومه قد نسي كيف يرفعه أصلًا، امتدت يده المشققة بتردد وحياء يطلب شيئًا مني، كنت من ذلك النوع الذي يوزع الابتسامات على الجميع، ألقى الكل بوجه باش، وكلمات مرحبة، كنت أنوي أن أعطيه مبلغًا كافيًا يسد حاجته لذلك اليوم، ولكنني لا أدرك ماذا حدث، كان شيء قد تغير بداخلي منذ أن زرت ذلك المنزل

الرهيب، وجدت نفسي أخرج مبلغًا أقل بكثير مما كنت أنتويه، أعطيته للمسكين بوجه متجهم، وكلمات جافة، حتى شعرت أني أسمع صوت تحطم كرامته فوق كلماتي الصخرية القاسية، كان ذلك ضد طبيعتي، ولكن سيطرة ذلك المنزل الرهيب كانت تتملك كل جوارحي، عُدت إلى المنزل كالمسحور، كالقروي الساذج الذي يلبي نداء نداهته، لا أدرك كيف قضيت الوقت، كيف كانت تبتلعني أضواء المنزل المظلمة، ولا كيف الْتهمتني عقارب ساعاته، سقطت في نوم عميق وكانت بداية الكارثة.

لا أعرف كيف وصلت إلى ذلك المكان، ولكنني أذكر أنه كان مكانًا مُخيفًا ككابوس جاثم فوق صدري، كان الضباب الخفيف ينتشر في كل مكان، السماء قد خشت على نجومها، والقمر قد آثر الهروب والاختفاء، كنت مرتعبًا، أستطيع أن أسمع دقات قلبي بصورة واضحة، لكنها كأنها لم تكن دقات قلبي، كانت تشبه كثيرًا صوت الطرقات التي بدأت بها تلك الزيارة، لم يكن هناك أي ملامح، سوى لمتاهة رهيبة، تمتد إلى ما لانهاية، لم تكن تلك المتاهة تتكون من جدران عادية، كان ملمسها ملمس كائن حي، رهيب، أسطوري، ينتظر فريسته المستسلمة، كانت هناك مئات الخطوط الحمراء المتعرجة فوق الجدران، كثعابين تستعد لالتهام من يجرؤ على الاقتراب منها، لم أشعر سوى بقدميّ تهربان إلى مكان لا أعلمه، كنت كلما وصلت إلى

نهاية الطريق أجد أنه لا ينتهي، كان تلك المتاهة تسخر مني، أخذت ألهث وألهث، وقدماي تنتاقل من متاهة لأخرى، حتى حدث أمر عجيب ومذهل، كنت قد بدأت أيأس من الخروج من تلك المعضلة، لكن فجأة، عند منعطف قريب، لمحته، كان ذلك المسكين الذي قابلته اليوم، كان مثلما رأيته، منحني الظهر، ينظر للأرض، يرتدي تلك الأثمال البالية، ولكنه كان يحمل سلسلة تحوي مفاتيح من النوع الكبير، مع انتباهي لتلك المفاتيح أبصرت بابًا كبيرًا خلفه، كان الباب يشعّ نورًا يبعث الطمأنينة والارتياح، شعرت بالسعادة، واقتربت منه، لكنني لم أكد أقترب بضعه أمتار، حتى استدار للخلف فأصبح ظهره يواجهني، انحني ناحية اليمين واختفى في منعطف، فحدث أمر مذهل، مع اختفائه اختفى الباب أيضًا وحلّ محله متاهة أخرى، أصابني الرعب والرغبة بالصراخ وأخذت أبحث كالمجنون في كل مكان، أخذت أدور وأدور، وطاقتي تنضب وتنضب، ومع الوقت شعرت برغبة عارمة في البكاء، كانت دموعي على وشك الانفجار حتى رأيته مرة أخرى، كان في آخر الممر الذي دخلته للتو، يحمل نفس المفاتيح، وخلفه نفس الباب، امتلأت عيوني بنظرة تضرّع، كنت آمل أن يخلصني من ذلك العذاب، اقتربت منه مسرعًا متمنيًا أن يساعدني ولكن حدث نفس المشهد مرة أخرى، ما كِدت أقترب حتى استدار للخلف واختفى في أول

منحنى، ومع اختفائه اختفى ذلك الباب أيضًا، سقطت على ركبتي وأخذت أبكي كالأطفال وأصرخ، ولكنني قررت عدم الاستسلام، أخذت أركض مرة أخرى، تكرر نفس المشهد عدة مرات، أبصر ذلك المسكن وذلك الباب وعندما اقترب يختفيان، حتى سقطت مغشيًا عليّ من فرط الإعياء.

استيقظت فزعًا وأنا أدرك أن ما مررت به كان حلمًا، أو كابوسًا مفزعًا بتعبير أكثر دقة، استغرقت وقتًا طويلًا في سريري حتى أستطعت التخلص من ذلك الفزع والتوتر الذي شعرت به، ذهبت إلى العمل، لم أستطع أن أحكي ما حدث لأحد، كان لساني عاجزًا، وذهني مشوشًا، عدت للمنزل مرة أخرى، كنت قد تعودت أن أعود مرغمًا، لا أتحكم بمشاعري، ولا بخطواتي، انتهى النهار سريعًا وحان وقت الليل، أويت إلى الفراش مرغمًا، لم يكد جسدي يسترخي حتى سقطت في نوم عميق، وجدت نفسي داخل ذلك الحلم المرعب، نفس التفاصيل، نفس المشاهد، نفس الأحداث، نفس التعب والاستسلام والصراخ، كان كدائرة الموت المغلقة التي لا فكاك منها، تكررت المأساة حتى سقطت مغشيًا علي كالمرة السابقة.

استيقظت مرة أخرى بنفس الفزع والإرهاق والتوتر، قضيت اليوم وغصة كبيرة تملأ قلبي، ورعب مفزع يتملك كياني من فكرة العودة إلى ذلك المنزل وذلك الكابوس،

انتهى عملي فعُدت للمنزل مرغمًا، تسوقني تلك القوة الرهيبة للإذعان، القوة التي تستميت لتجعلني أمرّ مرة أخرى بتلك التجربة الرهيبة، مرت الليلة الثالثة بنفس التفاصيل، استيقظت وقد انقطعت صلتي بالعالم، أصبحت بقايا إنسان، يبحث بلا أمل عن وقت يقطتعه بعيدًا عن ذلك الفزع والرعب، تدهورت صحتي وخفّ عقلي وغدوت كالمجنون أو أشد، وبحلول الليلة السابعة كنت قد قررت قرارًا شديد القسوة، كان قلبي ممتلئًا بالكراهية والبغض والقسوة، لذا قررت أن أدافع عن نفسي، خطرت أي فكرة غريبة فهرعت إلى المطبخ، أحضرت سكينًا قويًا وحادًا، استلقيت في فراشي وأنا أقبض عليه بقوة و حزم، لم يمض وقت طويل حتى سقطت في نوم عميق، وجدت نفسي داخل ذلك الحلم بكل تفاصيله، إلا من تفصيلة صغيرة ولكنها شديدة الأهمية، كانت يدي تقبض على ذلك السكين الحاد القوي، لم أشغل نفسي بتفسير ذلك، ولكنني أخذت أبحث في تلك المتاهة عن ذلك الرجل وذلك الباب، بعد برهة وجدته، كان كما هو، يواجهني، منحني الظهر، رأسه تنظر للأسفل، اندفع الأدرينالين إلى عروقي، أخذت أركض نحوه وأركض، والغريب أنه لم يستدر، لم يختف ويهرب، أخذت أقترب بسرعة وأنا ألهث، لم أكد أصل حتى ارتفعت يدي بالسكين وغرزته في صدره بكل قوة، أصابني الجنون وأخذت أطعنه وأطعنه حتى

سقط في مكانه مضرجًا في دمه، ألقيت السكين أرضًا ولم أتمالك شجاعتي للكشف عن وجهه، أخذت المفتاح بسرعة وأكلمت طريقي للباب، لم يكد ينزلق المفتاح داخل المزلاج حتى انفتح الباب، كان خلف الباب نور سحري، شعرت بالراحة والطمأنينة، أخيرًا، بعد سبعة أيام من الجحيم استطعت أن أرتاح أخيرًا، أغمضت عيني وتركت ذلك الشعور بالراحة وبالسكينة يتملكني، لم أدر كم استغرق الوقت ولكنني حين استيقظت أخيرًا حدث أمر رهيب جعل الشيب يغزو رأسي.

هناك في السرير المقابل لسريري، كان ذلك المسكين مستلقيًا ومضرجًا في دمائه، بنفس الوضع الذي رأيته في حلمي، كانت السكين على قيد متر منه ونَصلها الحاد يقطر دمًا، بالتأكيد دمه، أخذت أتراجع في رعب إلى ركن الغرفة، سقطت أرضًا وأنفاسي تتسارع، وفي الخارج كان صوت بوق الشرطة يدوّي، وهو يقترب ويقترب ويقترب.



السر

«قد يحتفظ الثلاثة بسرٍّ،

فقط إذا مات اثنان منهم»

بنجامين فرانكلين

هل سبق أن زارك الخوف ليلًا؟ هل طرق بابك ففتحت بلا تباطؤ ولا تردد؟ هل علمت في تلك اللحظة أن شجاعتك لن تحميك بعد ذلك أبدًا؟

أنا طبيب يافع، في مقتبل العمر، تخرجت حديثًا في كلية الطب، ممتلئ بالحياة، أعمل بقسم الطوارئ بمستشفى في منطقة شعبية، كانت طبيعة عملي تجبرني على المكوث بالمستشفى لساعات طويلة، وبأوقات متنوعة، بعضها في الصباح الباكر والآخر بعدما ينتصف الليل.

بدأت الحكاية في ليلة من ليالي منتصف ديسمبر، السماء صافيهة كضحكة طفل، القمر يبتسم ابتسامة عاشق، والنجوم حالمة في مهدها، كانت الليلة تدعو للبهجة، وللمرح، كنت مبتهجًا ومليئا بالفرح والسرور، حتى حدث ما جعلني لا أعرف للسرور طريقا أبدًا.

عند منتصف الليل تم استدعائي على نحو عاجل، كنت معتادًا على ذلك، الحوادث الطارئة، أو المرض الحاد الذي لا ينتظر وقتًا، استقليت سيارتي، جلست خلف المقود أدندن بأغنية مرحة، أدرت المفتاح، وانطلقت بالسيارة، كنت متعجلًا فلم أدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان.

في اللحظة التي بدأت فيها السيارة بالتحرك، صكت مسامعي صوت صرخة حادة، كانت لذلك القط الأسود الذي أراه دومًا عند جدار جاري، القط الذي طالما قمت بوضع الطعام والشراب له، أوقفت السيارة بحركة حادة، ثم ترجّلت لأرى ماذا حدث، اتسعت عيناي وانتفض قلبي، كان ذلك القط الأسود ملقًى على الجانب، إحدى أرجله قد تم كسرها، كان يئن بشكل يمزق نياط القلب، وفي عينيه نظرة ألم بلاحدود، لم يكن لدي الكثير من الوقت، لذا قمت بوضعه على أحد الجوانب في مكان آمن، حتى أعود وأجد ما قد أساعده به، عدت إلى السيارة، انطلقت مسرعًا مرة أخرى حتى وصلت إلى المستشفى.

انطلقت إلى غرفة الطوارئ، أتممت مهمتي على أكمل ما يرام ثم حان الوقت لأرتاح قليلًا، قررت أن أذهب لاستراحة الأطباء لكي أنال قسطًا من الراحة وأستعيد بعض النشاط علي أكون مستعدًا لما قد يجدّ في تلك الليلة، غرفة الاستراحة تقع في

آخر الممر الذي يربط بين غرفة الطوارئ وداخل المستشفى، وتقع باقي الغرف والتخصصات على جانبي الممر، كنت أعبر الممر بتراخٍ وهدوء حتى حدث شيء أثار التساؤلات في عقلي بشدة.

في منتصف الممر، على يمين المار لغرفة الاستراحة كانت تقع غرفة المشرحة، الغرفة التي تحتوي السر الذي لا كاشف عنه لحي أبدًا، كانت أبواب الغرفة قديمة، تحمل آلاف الخدوش والنتوءات الصغيرة، وكان الموتى يتشبثون بها، يستنجدون قبل العبور لعالمهم المجهول، كانت الغرفة قاتمة، تبعث في القلب قشعريرة، تلك القشعريرة التي توحي أن شيئًا ليس على ما يرام سوف يحدث، استعذت من أفكاري وقررت قرارًا عجيبًا.

كان هناك ضوء أخضر خافت ينبعث من بين انبعاجات أبواب تلك الغرفة وكأنه يجاهد للهروب من مصير قاتم غامض بداخلها، يتذبذب بصورة غير منتظمة وكأنه يعاني عذابًا لا طاقة لأحد باحتماله، خلف الباب كانت تنبعث أصوات غير معلومة، متداخلة، حتى مع التدقيق والإنصات الجيد لا تستطيع تحديد مفرداتها أبدًا، كل ذلك لم يقرع في ذهني أي إنذار، لم يخاطب تلك الغريزة التي تدفعك للهروب من الفخ، للإفلات من مصير مظلم ينتظرك مكشرًا عن أنيابه.

اقتربت حثيثًا من باب المشرحة، كانت خطواتي تتقارب متزامنة مع تسارع نبضات قلبي، كأنها تغزل حبلًا خفيًا يشدني إلى تلك الغرفة وإلى ذلك المصير، كنت أود أن أفتح الباب، أمنّي نفسي بأنه قد يكون من بالداخل هو عم أيوب عامل المشرحة، كنت أشك في ذلك، فالأصوات بالداخل كثيرة ومتداخلة لا تنبئ بأن من بالداخل هو شخص واحد أبدًا، أخذت أهدئ من روعي معلِّلًا أنه لابد وأن يكون من معه هم زملاؤه من العاملين بالمستشفى أو أصدقاؤه من خارجها، لم أنجح تمامًا في أن أستعيد رباطة جأشي ولكنني قررت قرارًا كان سبب كل الوبال الذي أصابني بعده.

كنت قد قررت أن أكتشف ما الذي يحدث بالداخل حتى لو كلفني ذلك المخاطرة والدخول لمصير غامض أجهله، انحنيت لأنظر عبر ثقب الباب محاولًا أن أستشف أي مشاهد تكشف ما يحدث هناك في تلك الليلة، كانت الصدمة هائلة، فما رأيته هناك لن ينمحي من ذهني مهما مرّ الزمن.

عبر ثقب الباب الواسع، رأيت عم أيوب، كان في منتصف الغرفة، كان هناك شيء مختلف بخصوصه، شيء لم أستطع أن أدرك كنهه من تلك المسافة ولا عبر ذلك الضوء، شيء شعرت به عبر وسيلة غير مفهومة، كان يحمل صندوقًا مُصمت بلا ملامح، في حجم صندوق متوسط الحجم، لم أتبين ألوانه جيدًا

بسبب الإضاءة، كان عم أيوب يحمله إلى المنضدة الواقعة في منتصف الغرفة وعلى المقابل كانت خزائن الموتى المصفوفة فوق بعضها البعض تثير الرعب والفزع، كان عم أيوب يتقدم بالصندوق نحو المنضدة، وظهره يواجه الباب، لذا حين وصل إلى المنضدة ووضع الصندوق لم أتبين ماذا يحدث، ولكن ما صار بعد ذلك دفع كل جرعة الأدرينالين التي أعرفها في حياتي إلى عروقي.

كان عم أيوب منهمكًا في فعل شيء ما بذلك الصندوق، شيء رهيب جعل خزائن الأموات في المشرحة تهتز اهتزازًا خفيفًا ثم ما لبث أن أصبح الاهتزاز أكثر قوة وعنفًا، كان منهمكًا في ذلك العمل بكل جوارحه، ومع مرور القليل من الوقت اعتدل للخلف وأطلق شهقة ارتياح، ثم حدث شيء رهيب عجيب.

مع اعتدال عم أيوب للخلف، انفتح ذلك الصندوق، انفتح بطريقة عجيبة وغريبة، ارتفع ذلك الصندوق قليلًا عن المنضدة كأنه قد نسي تمامًا أمر الجاذبية، أو أن قوة خفية تحمله، ثم انفتحت كل جوانبه بشكل عجيب عصي على الوصف، كان ذلك مصاحبًا لخروج ألوان عجيبة متغيرة منه، تتابع في تسارع متغير وبتبادل مختلف، تلك الألوان قد حملت قارورة زجاجية عجيبة، تحتوي سائلًا فيروزيًا شفافًا، كانت

القارورة ترتفع، وجسد عم أيوب يهتز في شغف واضح، وقلبي ينتفض انتفاضات عنيفة، كنت أتابع ما يحدث وكل ذرة في كياني تحمل خوفًا رهيبًا وتساؤلات لا حصر لها، رفع عم أيوب إحدى يديه فانطلقت الألوان كممر متعرج حتى وصلت إلى يديه، تبعتها القارورة تنزلق بنعومه على ذلك الممر كأنها تتبع أمرًا ما أو قوة خفية تنبعث من يد عم أيوب، بمجرد أن وصلت القارورة ليد عم أيوب أحكم إغلاق يده حولها، في تلك اللحظة العجيبة، اختفى ذلك الممر، واختفت الألوان، وعاد الصندوق العجيب للانغلاق بشكل مذهل وعجيب، ثم سقط ساكنًا على المنضدة، كان تلك القوة قد أدت مهمتها ثم انصرفت متعجلة، بمجرد أن اختفى كل ذلك تحرك عم أيوب ناحية خزائن الجثث، كانت خطواته واثقة وقوية، تحمل غموضًا عجيبًا، كان يتجه بشكل بدا كأنه قد تعود عليه مسبقًا، وصل إلى خزائن الجثث، انتقى عددًا من الخزائن ثم فعل شيئًا عجيبًا مذهلًا.

فتح عم أيوب الخزائن المختارة، قام بإزالة الغطاء الذي يخفي الجثث، ثم صبّ قطرة من ذلك السائل الفيروزي بداخل فم كل جثة، ثم ارتد إلى الخلف قليلًا، ما حدث بعد ذلك لن يستطيع أحد تصديقه أبدًا، لقد تحركت الجثث، لم أكن واهمًا أو غارقًا في خيالي، تحركت الجثث وغادرت خزائنها

مقتربة من عم أيوب، كان هذا مذهلًا، مُخيفًا، باعثًا للحيرة والاضطراب، أشار عم أيوب للجثث كي تتحرك نحو ركن الغرفة، ثم بخطوات واسعة قام بفتح الباب الجانبي للمشرحة، اندفع عبر الباب ثلاثة أشخاص في لهفة، كان عددهم مساويًا لعدد الجثث التي تحركت، كان أحدهما شابًا يافعًا والآخرين في منتصف الأربعينات، بمجرد دخولهم اندفعوا في لهفة واضحة واشتياق جارف، كل واحد منهم قد قام باحتضان إحدى الجثث التي أصبحت حية، ثم أخذوا في الحديث مع أحدهم الآخر، كانت الأصوات متداخلة، لكنني مع قليل من التدقيق استطعت أن ألتقط بعض العبارات، كانوا يتحدثون عن أحوالهم وبعض الأمور الشخصية، استغرقت في الاستماع بكل جوارحي ولم أنتبه إلى كارثة حقيقية كانت تحدث في ذلك الوقت.

في اللحظة التي انتبهت فيها إلى غياب عم أيوب، قبضت أصابع ثلجية على ذراعي، كانت تلك الأصابع تمتلك قوة هائلة وبرودة مخيفة، التفتّ في رعب وفزع لتقع عيني على أكثر مشهد مفزع رأته عيناي طوال حياتي.

كان عم أيوب واقفًا في مواجهتي وقد طالت قامته بشكل عجيب لتتجاوز المترين طولًا، عيناه واسعتان بشكل مخيف تسبح بهما دوّامتان من بحر تشتعل في أنحائه النيران، كان

التحديق بهما يبعث كل أنواع الألم والعذاب، كان يبتسم ابتسامة مخيفة، وجهه يتألق بضوء أخضر خفيف يخبو ويزيد بانتظام، حاولت الهرب بمنتهى الاستماتة، لكن قبضته كانت قوية بشكل لا يتوفر لبشري أبدًا، ثم فعلا شيئًا رهيبًا لم أستطع تفسيره إلى الآن.

امتدت يد عم أيوب ناحية وجهي ثم مسّه من الجانب وسحبه للأمام فخرج وجهي في قبضة يديه، أُصبت بالرعب وبالذهول وبالفزع، فقد كان وجهي في قبضة يديه مثل قناع من الجلد يحمل كل تفاصيل وجهي، أخذت أصرخ وأصرخ بكل قوتي، لكن الصرخات لم تتجاوز حلقي بفعل قوة رهيبة لم يكن لي قِبل بها ولا مقاومتها، ترك عم أيوب قناع وجهي فظل عالقًا في الهواء ثم تمتم بعبارة لم أتبين كُنهها، لكن ما حدث بعد ذلك كان أقوى من أن أفكر بها، من ذلك القناع الجلدي تكوّن جسد يشبه جسدي بكل تفاصيله وحتى الملابس التي أرتديها، كان كل شيء بكل التفاصيل والدقة التي جعلت عينيّ تتسع هلعًا، كان الفارق الوحيد هو تلك الهالة الخضراء الخفيفة التي تخبو وتزيد بشكل منتظم ومثير للأعصاب، ابتسم ذلك الشبيه بسخرية حين رآني ثم تمم شيئًا لم يفهمه سوى عم أيوب، بمجرد أن سمع عم أيوب ما قاله الشبيه رفع يده الممسكة بذراعي فوجدت نفسي مرتفعًا عن الأرض بمتر على

الأقل، ثم نظر إلى الحائط المقابل فلم أشعر سوى بجسدي يطيرِ عبر الغرفة ليصطدم بالجدار المقابل، كانت الآلام رهيبة والكَدَمات تملأ جسدي، فلم يتحمل جسدي كل ذلك وانهرت في غيبوبة عنيفة.

ما حدث بعد ذلك لم أجد له تفسيرًا حتى الآن، استيقظت لأجد نفسي في سريري، نعم في سريري، بجسد مليء بالنشاط وذهن صاف، كنت متعجبًا فلازلت أذكر تفاصيل تلك الليلة العجيبة بكل ما فيها من رعب وتساؤلات وأشياء خارج حدود العقل البشري، ارتديت ملابسي على عجل وقررت العودة إلى المستشفى لأكتشف ما حدث في الليلة السابقة، كنت مقررًا أن أفعل ذلك بأي ثمن وتحت أي ظرف، توجهت للخارج فلفت نظري ذلك القط الأسود الذي صدمته بالأمس، كان لايزال يسير بشكل يثير الشفقة بتلك القدم المكسورة، فتوجهت إليه وحملته داخل البيت، وضعت طعامًا وشرابًا ثم انصرفت إلى هدفي.

كانت الخواطر والتساؤلات تتنازع داخلي، والخوف يترقَب في صمت خطواتي، توجهت إلى قسم الطوارئ لأسأل زملائي عما حدث بعدما انصرفت للاستراحة، فكانت علامات التعجب والحيرة، لقد أجمع الكل على أنني قد عُدت وأكملت عملي ثم انصرفت عند الفجر لمنزلي، كانت كلماتهم تحدث داخلي فزعًا وتساؤلات لا حصر لها ولكنني لم أفصح عن

ذلك، توجهت إلى المشرحة لأرى عم أيوب، هو من يملك مفتاح اللغز، هو بداية كل الأحداث وبالتأكيد لديه نهايتها، عند باب المشرحة كان يجلس عم أيوب، لم تكد تقع عيناي عليه حتى أصابتني الحيرة والتعجب، بمجرد أن رآني ابتسم ابتسامته المعهودة، كان ودودًا وباشًّا، قام من مقعده وتوجه ليصافحني، قمت بمصافحته وأنا أتفرس كل تفاصيله، كان كل شيء عاديًا، لم يكن هناك ما يثير الريبة، كان مختلفًا تمامًا عمن قابلته بالأمس، هل كنت أهذي؟ دار ذلك الخاطر بعقلي ولكنني قاومته بشدة، فما حدث بالأمس كانت تفاصيله شديدة الوضوح والواقعية، خطرت لي فكرة عجيبة، فطلبت من عم أيوب كوبًا من القهوة، فلبّى الطلب مُرحّبًا ثم انصرف لِيعدّه ويحضره لي، كانت عيناي تتابع عم أيوب بمجرد أن انصرف في نهاية الممر دخلت غرفة المشرحة على عجل لأتفحصها عن قرب، كان كل شيء عاديًا، كل التفاصيل لا توحي بما حدث بالأمس، كان كل ذلك يثير الحيرة واليأس، أخذت أفتح الخزائن بشكل عشوائي، كل شيء على ما يُرام، أخذ الشك يتسرب إلى عقلي حتى حدثت مصادفة غريبة وعجيبة غيرت مسار الأحداث وبشدة.

كنت قد أغلقت كل الخزائن ووقفت بجوارها أفكر فيما حدث، عندما لمحت عيناي شيئًا صغيرًا ليس له أهمية، كانت

الخزائن معلمة بأرقام بارزة يتم وضعها لتمييز كل خزنة، وهناك عند الخزانة رقم ثلاثة عشر، كان رقم ثلاثة المثبت بمسمار صغير ساقطًا لأسفل بفعل عدم تثبيت ذلك المسمار جيدًا، كان منقلبًا لأسفل فامتدت يدي تديره بحركة دائرية لأعلى حتى يصبح مستقيمًا، كنت أفعل ذلك بحركة لاإرادية وغير مخططة فحدث أمر مذهل.

بمجرد أن عاد الرقم إلى وضعه الصحيح، برز جزء من الحائط يشبه الحائط تمامًا، لم يكد يبرز حتى اختلف لونه للون الصندوق الذي رأيته بالأمس، انفصل ذلك الصندوق وسقط على الأرض في مواجهتي، كانت مفاجأة مذهلة وضربة لم أخطط لها أبدًا، فقررت قرارًا كان هو الجنون بذاته.

قررت أن أحمل ذلك الصندوق المريب وأعود إلى المنزل لأتفحصه، حملته سريعًا وانطلقت عائدًا إلى المنزل بكل اللهفة وكل التوتر.

استغرق الوصول إلى منزلي دهرًا كاملًا، أو هكذا شعرت، كانت أنفاسي تسابق أفكاري في التسارع والتعاقب، كنت أرغب بشدة في معرفة سر ذلك الصندوق العجيب، وسر عم أيوب الذي لم أكن أكتشفه لولا تلك المصادفة، عدت إلى المنزل ووضعت الصندوق فوق المنضدة وأخذت أحدّق به كثيرًا، يا ترى ماذا كان يفعل عم أيوب ليفتحه، أخذت أقلّبه

يمنة ويسرة في حيرة، أخذت أعتصر عقلي بكل الاحتمالات الممكنة لكني لم أفلح في شيء قط، أصابني اليأس والإحباط وخرجت إلى المطبخ كي أعدّ شيئًا آكله، كنت أفكر كثيرًا في حل اللغز فلم أنتبه والسكين الحاد يجرح يدي، حاولت أن أوقف الدماء ولكن ما حدث صرف انتباهي عن ذلك.

في الغرفة التي وضعت بها الصندوق وصل إلى مسامعي صوت طرقات صادرة من المنضدة، توجهت مسرعًا فإذا بي أمام مشهد لم أر مثله.

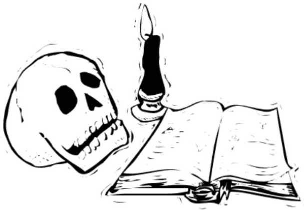
كان الصندوق يهتز اهتزازات قوية كأنه يحوي ماردًا جبارًا يجاهد للخروج منه، كانت هذه الاهتزازات هي ما يصدر صوت تلك الطرقات التي سمعتها، وكلما اقتربت ازدادات تلك الاهتزازات والطرقات حتى وصلت إلى الصندوق، امتدت يدي لتمسكه كي أدرك سبب تلك الاهتزازات فحدث أمر مذهل.

ما كادت الدماء التي تنزف من يدي تمسّ الصندوق حتى توقفت الاهتزازات وحدث شيء خارق للعادة، سارت الدماء على سطح الصندوق بسرعة في مسارات محددة ثم ما لبثت أن تشكلت على هيئة كلمات، كانت الكلمات تتكون من ألوان كألوان الطيف تتبدل بسرعة مع تبدّل الكلمات لتشبه كلمات فرعونية إلى صينية إلى لغات غير معروفة ولكنها ترددت داخلي بشكل لا يدعو إلى الشك، كانت العبارات تقول «عبر نهر الدم

تأتي المعرفة، والجهل، ويصبح الغروب عنوانًا للمستحيل» لم أفهم ماذا تقصده العبارة ولكن الصندوق أخذ في الارتفاع، كان قوة خفية تحمله، ثم انفتح بتلك الطريقة العجيبة وانطلقت منه نفس الألوان التي راأيتها سابقًا، امتد ممر الألوان حتى وصل إلى يدي، ثم ارتفعت تلك القارورة وانطلقت تتموج على ذلك الممر كما حدث في السابق تمامًا، بمجرد أن وصلت إلى يدي أحكمت قبضتي حولها ثم أخذت أفكر فيما سأفعل، خطر لي خاطر أن أختبر ذلك السائل وتأثيره ولكنني كنت أخشى من تجربته على نفسي، لذا فقد رأيت أن أجربه على ذلك القط الأسود الذي أعتني به، لذلك فقد أحضرته ثم وضعت قطرة من ذلك السائل داخل فمه، ما حدث بعد ذلك كان أمر مذهل، بمجرد أن تركت القط، أخذ يتقافز في قوة ونشاط دون أن يبدو أن إحدى قدميه مكسورة، لقد شفيت تمامًا وأصابته نشوة عجيبة من الفرحة والسعادة التي جعلته ينتقل في كل مكان داخل الغرفة، كان ذلك حافزًا لي لأجرب ذلك العقار، فقمت بوضع قطرة في فمي، بمجرد أن وصلت القطرة إلى لساني سرى في جسدي شعور خارق، شعرت بتدفق الدماء كشلال هادر في كل أنحاء جسدي، انطلقت خلايا مخي للعمل بأقصى قدراتها، شعور عجيب ينتأبى وأنا أرى كل ذكرياتي تنتظم في شبكة كشِباك العنكبوت، كانت لدي القدرة على اختيار أي ذكرى ثم

أعيدها إلى مكانها في تلك الشبكة، أصبح جسدي خفيفًا ولكن فجأة هبط ظلام تام، لم أعد أرى أي شيء، ولكن ذلك لما يضايقني، بل أصبحت لدي القدرة على التواصل مع أي شخص أريد التواصل معه، كان ذلك شعورًا جميلًا وباعثًا للسعادة إلى أقصى حد، لم أدرك كم استغرق الأمر من وقت ولكنني وجدت نفسي فجأة في غرفي نومي وقد استيقظت من سبات عميق، قمت من سريري، أعددت الفطور ثم توجهت إلى المستشفى، قبل الخروج من منزلي مررت بذلك القط الأسود، كان بنفس المرح والنشاط والصحة مثل اليوم السابق، إلا من تفصيلة صغيرة، كانت تحيط به هالة خضراء تخفت وتزيد في تتابع ملحوظ، لم أشغل بالي كثيرًا وانطلقت إلى المستشفى شاعرًا بنفس النشوة التي صاحبت ذلك الترياق، انطلقت إلى المشرحة أولا، مُمنيًا النفس بمقابلة عم أيوب والتحاور معه ولكنني لاحظت شيئًا غريبًا، كانت هناك هالة خضراء تخبو وتشتد حول جسدي، لم تكن تعيقني أو تضايقني ولكنها كانت تبعث التساؤل والحيرة في أعماقي، وصلت إلى باب المشرحة فلم أجد عم أيوب فقررت الدخول، امتدت يدي لتفتح الباب فحدث أمر كان له وقْع الصاعقة على رأسي، لقد اخترقت يدي الباب، نعم لم أستطع مسّه، اخترقته وتبع ذلك جسدي كله، مر عبر الباب كما يمر الشلال الهادر إلى مصبه، وجدت نفسي داخل غرفة

المشرحة وأنا أتلفت في ذهول حولي، ففي مقابل باب الغرفة كان يقف عم أيوب، لم يكن عم أيوب الذي أعرفه، ولكنه نفس الشخص الذي قابلني في تلك الليلة المشؤومة، كان يبتسم ابتسامة مرحبة وحوله كان يقف جميع جثث المشرحة مبتسمين مُرحبين، أصابني رعب هائل وتراجعت للخلف مصعوقًا، وابتسامة عم أيوب وباقي الجثث تتسع أكثر وأكثر وأكثر.



الوطن
للنشر والتوزيع